داعش

السكين التي تذبح الإسلام

ناجح إبراهيم
هشام النجار


داعش

داعش.. السكين التي تذبح الإسلام

الدكتور/ ناجح إبراهيم
الأستاذ/ هشام النجار

تصميم الغلاف: هاني صالح

الطبعـة الأولى ٢٠١٤

تصنيف الكتاب: فكر إسلامي/ سياسة

٨ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقـم الإيداع ١٩٥٩٠/ ٢٠١٤
ISBN 978_977_09_3309_1

داعش

السكين التي تذبح الإسلام

بقلم

الدكتور/ ناجح إبراهيم

الأستاذ/ هشام النجار

دار الشروق

إهـــداء

● إلـى كل قطرة دم معصومة أريقت بغير حق، عسـى أن يتوقف هـذا النزيف المتواصل وتحقن الدماء المعصومة .

● إلى كل من اعتنق فكر التكفير، فأخرج خصومه ومخالفيه من دائرة الإسلام.

● إلى كل من أساء تقديم الإسلام إلى الآخرين.

● إلى كل من قدم الإسـلام للناس، وكأنه جاء ذابحًا أو مفجرًا أو مدمرًا للعالمين .. بدلًا من كونه «رحمة للعالمين».

● إلـى كل من حول قضية الإسـلام العادلة وتجارته الرابحة، إلى قضية خاسـرة وتجارة كاسدة بسوء دفاعه عنه.

● إلـى كل هـؤلاء أهـدي هـذا الكتـاب، عسـى أن يتوقفـوا قليـلًا عـن غيهم .. وسـوء فهمهم وتقديرهم.

المؤلفان

د/ ناجح إبراهيم

أ / هشـام النجـار

المحتويات

مقدمة

كما استيقظ العالم صبيحة الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م على فاجعة تفجيرات نيويورك المأساوية غير المسبوقة، وهالته صدمة المفاجأة الدموية المفجعة في سماء الدولة العظمى في العالم الولايات المتحدة الأمريكية.. فقد استيقظ من جديد اليوم على صدمات وأهوال متتالية، من خلال فيديوهات مبثوثة عبر اليوتيوب لأعضاء تنظيم داعش يمارسون القتل والذبح والصلب بصورة وحشية تحت عناوين وتصورات إسلامية، زاعمين أنهم الممثلون للإسلام وللأمة تحت خلافة أبو بكر البغدادي.. وأن ما سواهم باطل ولا يمثل المسلمين والأمة الإسلامية في شيء.. كما ورد على لسان المتحدث باسم داعش أبو محمد العدناني عندما قال:

«تبًّا لتلك الأمة التي يريدون جمعها.. أمة العلمانيين والديمقراطيين والوطنيين.. أمة المرجئة والإخوان والسرورية» .

قادة داعش يقدمون أنفسهم للعالم كممثلين حصريين عن الإسلام والمسلمين، لا ينازعهم في ذلك منازع، ويزعمون أن ما يقومون به وينطلقون منه هو الإسلام الصحيح.. وهو الذي يخدم مصالح الأمة ويحقق نصرها وعزها وتمكينها المفقود.

ولخطورة وأهمية هذه القضية وما سببته للعالم كله من فزع وقلق، ولفائق أهميتها لجميع المسلمين وللبشرية كلها وللحركة الإسلامية على اختلاف أطيافها؛ جاء هذا الكتاب ليفصل ويشرح حقيقة هذا التنظيم وجذوره وخلفياته وأفكاره، وليحلل بعمق أدواره المريبة في الصراعات الإقليمية والدولية، بما يجعله مجرد أداة تحركها قوى لا تريد لهذه الأمة الخير والنهوض واستقلال الإرادة والوحدة، بخنقها بالصراعات المذهبية وضرب استقرارها وتمزيق وحدتها.

جـاء هـذا الكتاب أيضًا ليتتبـع بدقة وعمق كيف أن هذا التنظيم أسـهم في تشـويه الصورة الحضارية للإسلام وللأمة، وفي إعاقة مسيرتها الحضارية الإيجابية الفاعلة.

ولـم يهمـل الكتـاب الجانـب الشـرعي والدسـتوري إنمـا أفـرد فصلًا كامـلًا له، واضعًـا داعـش في ميزان الشـرع والفقه الدسـتوري والفكر السياسـي الإسـلامي.. متتبعًـا الأدلـة والشـواهد وتحليل الرؤى والمواقـف، بعرضها علـى قطعيات الوحي ومصالح الأمة وكليات الشريعة ومبادئها الكلية وقيمها العليا.. لنكتشف كيف خصم هـذا التنظيـم من قيمة نظـم الحكم في الإسـلام، وكيف أعاق تطور أشـكال ومظاهر وآليات وأدبيات وإبداعات الدولة في الإسـلام، بتصوراته القاصرة وتطبيقاته الشائهة للشريعة الإسلامية.

استلت داعش السـكاكين لإقامة الحدود وقطع الأيدي وذبح الرهائن والمدنيين، وإشاعة الرعب والفزع في قلوب مخالفيها وفي نفوس البشر.

وداعش في حقيقة الأمر ما هي إلا أداة وسـكين في يد خصوم ومنافسي هذه الأمة لذبح الإسلام وتمزيق جسد الأمة.

نناقـش فـي هذا الكتاب ملـف داعش من جميع جوانبه السياسـية والإسـتراتيجية والفكرية والحضارية والشـرعية الدستورية.. وسنخصص فصلًا لكل محور من تلك المحاور.. مع فصل خاص مستقل للتعريف بداعش تنظيمًا وفكرًا وامتدادًا ومرجعية.

سـائلين المولى عز وجل أن يتقبل منا هذا الجهـد، ويجعله خالصًا لوجهه الكريم وأن ينفع به المسلمين في كل مكان، وأن يحفظ أمتنا ويصون وحدتها.

المؤلفان

د/ ناجح إبراهيم

أ/ هشـام النجـار

الفصل الأول

داعش.. من تكون؟

كيف بدأت داعش؟

البداية كانت مع تنظيم القاعدة الذي مر بعدة مراحل في تطوره.. وصولًا لما استقر عليه اليوم أمره بأن أصبح - كما تنبأ وتمنى له منظِّر التنظيم أثناء الجهاد في أفغانستان مصطفى ست مريم، ويكنى بأبي مصعب السوري - أصبح فكرة عامة ملهمة وتنظيمًا لا مركزيًّا.. بحيث تتشكل الخلايا في كل مكان في العالم بطريقة تلقائية غير متفق عليها مسبقًا، واتفق معه في الرؤية الشيخ أيمن الظواهري عندما تحدث عن لا مركزية التنظيم.

وجاء الربيع العربى فرصة مواتية لجميع التنظيمات والتيارات الإسلامية وسعت جميعًا، وخاصة التنظيمات التكفيرية، لانتهازها بأقصى ما تملك لتصفية الحسابات القديمة بينها وبين أجهزة الأمن والمخابرات والجيوش في الدول الإسلامية.

وفي ظل سوء الأداء السياسي للإسلاميين بعد وصولهم إلى الحكم، وعدم تمكنهم من بسط سيطرتهم ونفوذهم وإقناع مؤسسات الدولة المدنية والعسكرية للتعاون معهم، أخطأت بالاعتماد على التكفيريين وخلايا القاعدة والجهاديين السابقين لسد هذا العجز وللمزايدة بهم، وليكونوا يدها وذراعها القوية في مواجهة التحديات الأمنية والسياسية.

في الوقت الذي كانت فيه الثورة السورية تأخذ أبعادًا إقليمية ودولية خطيرة، وتم توظيف دعاوى الحرب على الإرهاب ومواجهة القاعدة والجهاديين من قبل نظام الأسد لمواجهة الانتفاضة الشعبية المطالبة بإصلاحات سياسية، وأخذت الأمور في التدهور مع ضراوة الاقتتال وحجم الخسائر في الأرواح وبشاعة القصف في اتجاه المدنيين العزل.. ومع دخول أطراف طائفية ومذهبية مسلحة لمعاونة الأسد على الصمود، فصار هذا المناخ مواتيًا هو الآخر لتزايد نفوذ التنظيمات الجهادية

والتكفيرية المسلحة التي تسمت بأسماء متعددة وجلبت إليها دعمًا لوجستيًا وبشريًا وماديًا من دول إسلامية مجاورة وبعيدة.

ومن أقوى تلك التنظيمات التي تشكلت هناك تنظيم جبهة النصرة وأحرار الشام، ثم تنظيم داعش الذي دارت لاحقًا بينه وبين تلك التشكيلات العسكرية السنية معارك ضارية للفوز بصدارة المشهد وحيازة القيادة المطلقة للجهاديين.

وجاء الاحتقان المذهبي والطائفي والظلم الشديد الواقع على السنة العراقيين من نظام المالكي المدعوم من أمريكا؛ ليصنع مناخًا مواتيًا كذلك في العراق لكي تستغل هذه التنظيمات مثل هذه الظروف لإيجاد قدم قوية راسخة لها في المنطقة؛ فاستغلت مجموعة داعش - التي كانت قد استولت على مناطق حدودية بين العراق وسوريا- الغضب والكبت السني لتوظفه لصالح مشروعها الخاص بالاستيلاء على الحكم، وإعلان ما يسمى بالدولة الإسلامية في العراق والشام.

وجاء فشل الإسلاميين التقليديين في الحكم وعجزهم عن مواءمة الواقع وتقديم تصور مناسب ومتوازن للحكم يراعي التفاعلات والتنوعيات الداخلية، ويدرك مدى خطورة التحديات الإقليمية والدولية ليمثل الغذاء الذي نمت عليه داعش والتنظيمات التكفيرية داخل مصر وسوريا، حيث انتهزوها فرصة ثمينة ليقولوا لشباب الحركة الإسلامية: إن الديمقراطية لا تجدي شيئًا ولا تصنع تغييرًا.. وإنه لا سبيل سوى في الصدام والمواجهة المسلحة والاندماج في التنظيمات الجهادية والتكفيرية المسلحة، وكان هذا الفشل والعجز السياسي المتواصل للإسلاميين التقليديين وعلى رأسهم الإخوان المسلمين، عاملًا مهمًّا في انتشار داعش في المنطقة إلى جانب الاحتقانات والصراعات الطائفية والمذهبية.

وفي الوقت الذي انتشرت فيه القاعدة بحسب رؤية مصطفى ست مريم والظواهري في نيجيريا تحت مسمى «بوكو حرام».. وفي غزة وسيناء تحت مسمى «أنصار بيت المقدس».. وفي الجزائر تحت مسمى «الجماعة السلفية للدعوة والقتال».. وفي الصومال تحت مسمى «الشباب».. وفي سوريا تحت مسمى «جبهة النصرة».. وفي ليبيا واليمن وغيرها، نجد أن داعش تركزت في سوريا والعراق تحت راية وعنوان (إقامة دولة الخلافة الإسلامية وعاصمتها بغداد)، بعد أن بذر أبو مصعب الزرقاوي

الأردني أولى بذور هذا التنظيم الذي خرج من رحم أفكار وأدبيات تنظيم القاعدة تحت مسمى «تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين»، والذي تطور مع المستجدات والتفاعلات الإقليمية والدولية ليتشكل تشكيله النهائي على يد أبو بكر البغدادي بـ «تنظيم داعش» أو «الدولة الإسلامية في العراق والشام».. أو ما يسمى «دولة الخلافة الإسلامية».

وأبو بكر البغدادي هو ثالث قيادي يتولى إمارة التنظيم بعد مقتل أبو مصعب الزرقاوي، وبعد مقتل خليفته في قيادة التنظيم أبو عمر البغدادي، الذي سرعان ما أعلن نفسه خليفة، وطلب من كل أمراء الفصائل الجهادية والإسلامية مبايعته وتوعد من يرفض بهدر دمه.. وساعدت الظروف غير المواتية في العراق وسوريا هذا الرجل لمضاعفة نفوذه ليصبح الأقوى والأشهر من الظواهري والجولاني قائد تنظيم جبهة النصرة.

تعتنق داعش فكر التكفير.. فهم يكفرون مرتكب الكبيرة ويلاحقون مرتكب المعاصي، ولا يعذرون أحدًا من العوام بجهلهم.. ويكفرون كل من لا ينضم لجماعتهم ودولتهم التي يعتبرونها دولة المسلمين، ومن لم يعلن ولاءه لها وانضمامه لها ومبايعته لرئيسها وقائدها فهو كافر حلال الدم.. ويحرمون الديمقراطية والانتخابات والمشاركة السياسية وتداول السلطة.. ويكفرون كل الحكام الذين لا يحكمون بما أنزل الله – وفق تصورهم لهذا المفهوم –.. ويكفرون العلمانيين والليبراليين واليساريين والقوميين والناصريين، وكذلك الحركات الإسلامية الأخرى التي لا تذعن وتعلن مبايعتها وولاءها لداعش وأميرها.. وكذلك يكفرون أعوان الحكام ومؤسسات دولهم العسكرية والمدنية والعاملين بها.

وحققت داعش انتصارات متتالية خلال فترة زمنية وجيزة، نتيجة التمويل السخي الذي يأتيها من جهات مستفيدة من هذه الأوضاع وتسعى لترسيخها وما غنمته من أموال بعد المعارك التي خاضتها والأماكن التي استولت عليها.

وأسهمت الوحشية والدموية التي يتمتع بها مقاتلو داعش في بث الرعب والفزع في قلوب جنود الجيش العراقي، وفي قلوب سكان البلدات التي كانت تستسلم بسهولة؛ نتيجة الأخبار المفزعة عن وحشية وشراسة هؤلاء المقاتلين على طريقة

دخول التتار هذه الأماكن، بحسب وصف كتب التاريخ.. لدرجة أن مجلة الجارديان البريطانية تساءلت: «**كيف هرب ٣٠٠ ألف جندي مقاتل ومدرب أمام ٨٠٠ جندي، غير نظامي**»؟! .. وكيف استولى هذا التنظيم بهذه السرعة والسهولة على مدينة الموصل، ثاني أكبر مدن العراق، ملتهمًا بشكل سريع محافظة نينوي بالكامل والسيطرة بدون قتال على مدينة تكريت بالكامل مسقط رأس صدام حسين.. حيث هربت قوات الجيش العراقي أيضًا تاركة الطريق مفتوحًا نحو العاصمة العراقية بغداد على بعد ١٤٠ كيلو متر فقط؟!

ومن الملاحظ هو سرعة انتشار داعش وسرعة تمكنها وسيطرتها على البلاد التي تشهد فوضى سياسية، وتعاني ضعفًا في سيطرة الدولة ومؤسساتها على مقاليد البلاد.. فضلًا عن تفكك وانهيار قواتها المسلحة وأجهزتها الأمنية.

لذلك حققت نجاحًا كبيرًا في ليبيا التي انهارت مؤسساتها وجيشها بمجرد سقوط القذافي؛ لأن القذافي كان هو الدولة.. فبمجرد سقوطه انفرط العقد، وكذلك حققت نجاحًا محدودًا في سوريا ونجاحًا أكبر في العراق، التي عمد الأمريكان بعد الغزو لإضعاف مؤسساتها وتفكيك جيشها، ليعطوا الفرصة الذهبية لتلك التنظيمات في التمدد داخل الفراغ الذي خلفه انهيار وتفكك مؤسسات الدولة.

لكن الوضع اختلف في حالة مصر.. لأن الجيش والأجهزة الأمنية ومؤسسات الدولة ليست جزءًا من النظام السياسي لتسقط وتنهار فور سقوطه؛ ليسهل على التنظيمات والميليشيات المسلحة السيطرة على المساحات والمناطق الممتدة طولًا وعرضًا وتعلن قيام دولتها كما حدث في ليبيا والعراق.

ويعتبر تنظيم داعش أغنى تنظيم إرهابي مسلح على وجه الأرض؛ فهو يضم دخلا هائلا عبر آبار النفط في سوريا، وعبر عمليات الفديات والكثير من الغنائم التي تقدر بنصف مليار دولار، استولت عليها من البنك المركزي في الموصل.

ووفقًا لمجلة إيكونوميست البريطانية تسيطر داعش الآن على دولة تشبة الأردن بنفس المساحة ونفس عدد السكان.. حيث يسكن هذه المناطق التي يحكمها داعش حوالي ٦ ملايين سوري وعراقي.

شفرة داعش.. والتنظيمات المسلحة في المنطقة العربية

مرت المنطقة العربية ومنطقة الشرق الأوسط بعدة مراحل.. منها مرحلة التوحد تحت راية الخلافة الإسلامية بمراحلها المختلفة، من الخلافة الراشدة إلى الأموية إلى العباسية إلى الدول الكبرى الجامعة، مثل دول الأيوبيين والمماليك وغيرهما، والتي كانت عادة ما تشمل على الأقل دولتي مصر والشام.. ثم جاءت الخلافة العثمانية فوحدت معظم العالم العربي، مضيفة إليه تركيا وشرق أوربا واليونان حتى عام ١٩٢٤ الذي ماتت فيه الخلافة العثمانية.

ثم جاءت مرحلة الدول الكبرى مثل دولة محمد علي، والتي كانت تمتد إلى حدود أوغندا جنوبًا، وتشمل مصر والشام والحجاز تقريبًا.. ثم تمزقت هذه الدول الكبرى إلى دول أصغر بعد الاحتلال الأوربي لمعظم الدول العربية ثم بداية تحررها من هذا الاستعمار.. فانفصلت السودان عن مصر.. وانفصلت لبنان عن سوريا.. واستقل الأردن وحده.

ثم تطور الأمر في التسعينيات، فقسمت السودان إلى دولتي الشمال والجنوب.. وقسمت العراق عمليًّا بعد الاحتلال الأمريكي إلى ثلاث دول: إحداها كردية في الشمال، والثانية شيعية في الجنوب، والثالثة سنية في الوسط. ولم يبق على تدشين هذا التقسيم سوى الإعلان عنه فقط.. فالأكراد لهم جيش وشرطة وأجهزة استخباراتية وعلم ونشيد وطني مستقل.

ثم جاءت المرحلة الرابعة بعد ثورات الربيع العربي، فإذا بالدول تنقسم إلى كنتونات صغيرة تحكمها جماعات مسلحة متحاربة متباغضة متقاتلة.. بحيث تتحكم هذه الجماعات والميليشيات المسلحة في سياسة هذه الدولة ومقدراتها الاقتصادية وأمنها، أو فزعها أكثر من حكومات هذه الدول.

أولًا: العراق: فهناك داعش هي المتحكم الرئيسي في وسط العراق.. أما الميليشيات الشيعية مثل ميليشيا «عصائب أهل الحق» الشيعية التي يتزعمها قيس الخزعلي، التي قامت بمجزرة مسجد مصعب بن عمير في ديالي، وقتلت بدم بارد ٧٠ مصليًّا من السنة، وأصابت المئات وهدمت المسجد على رءوس المصلين.. وميليشيا «جيش المهدي» التي يتزعمها الزعيم الشيعي مقتدى الصدر التي تتمركز في سامراء وجنوب بغداد.. وميليشيا «بدر» الشيعية التي يتزعمها هادي العامري وزير النقل السابق.. هل تتخيلون أن وزير نقل في الحكومة العراقية السابقة يتزعم ميليشيا تقتل وتذبح بالاسم والمذهب؟!.. أما في كردستان العراق فهناك «البشمركة» وهو جيش كردي يسيطر تمامًا على المنطقة الكردية في العراق.

ثانيًا: سوريا : فإذا انتقلنا إليها وجدنا أن «جيش النصرة» الابن الأثير للقاعدة والأقل تكفيرًا ودموية من داعش، يسيطر على الوضع في سوريا سياسيًّا وعسكريًّا واقتصاديًّا.. وهو ابن عم داعش رغم ما بينهما من خلافات حادة.. وهناك في سوريا أيضًا الجيش السوري الحر، وهو يسيطر على مناطق كبيرة أيضًا في سوريا ويتلقى مساعدات سخية من أمريكا وحلفائها وتركيا وحلفائها.

ثالثًا: ليبيا: فإذا تركنا سوريا وذهبنا إلى ليبيا، وجدنا «أنصار الشريعة» وهو أحد أبناء القاعدة يسيطر على مناطق كبيرة في ليبيا.. بل إنه أتم سيطرته على مطار طرابلس، ويملك من الأسلحة والذخائر والمعدات والأموال الكثير والكثير.. وهو أقل حدة في التكفير من داعش، ولكن يشاركها تكفير كل حكام الدولة العربية وجيوشهم وشرطتهم وأجهزتها الأمنية وكذلك برلماناتها، فضلًا عن كل الشيعة والصوفية.

رابعًا: لبنان: فإذا انتقلنا إلى لبنان وجدنا أن «حزب الله» هو الفاعل الحقيقي والمتحكم الرئيسي على الأرض، والذي يملك كل أدوات التمكين في الملعب السياسي اللبناني اقتصاديًّا وسياسيًّا وعسكريًّا وإعلاميًّا.

فإذا عقدنا مقارنة بسيطة بين حزب الله والدولة اللبنانية مثلًا.. وجدنا أن الأخيرة بلا رئيس جمهورية منذ ما يقارب العام.. في حين أن حزب الله له قيادة مركزية قوية.. فإذا قارنت مخابرات الاثنين وجدت أن مخابرات حزب الله أقوى.. بل قد تجد أن معظم معلومات أجهزة الدولة حتى السرية منها قد تصل إلى حزب الله.. في الوقت الذي لا تستطيع الدولة اللبنانية معرفة أي شيء عن حزب الله.

أما بالنسبة للسلاح والعتاد والكفاءة القتالية، فقد تجد أن حزب الله أقوى تسليحًا وأشد تدريبًا وأكثر جاهزية.

والغريب أن حزب الله يستطيع اختراق الدولة اللبنانية بكاملها، في الوقت الذي لا يحدث فيه العكس أبدًا.

أما الأغرب من ذلك فهو امتلاكه لشبكات متطورة للمحمول، فضلًا عن شبكات التلفونات الخاصة واللاسلكية التي لا تعرف عنها الدولة شيئًا.. والخلاصة أن حزب الله أقوى من الدولة اللبنانية بكثير.

خامسًا: فلسطين: فإذا ذهبنا إلى فلسطين وجدنا «حماس» هي المسيطرة تمامًا وفعليًّا على الملعب الفلسطيني ليس في غزة فحسب.. ولكن في الضفة أيضًا..

سادسًا: اليمن: إذا ألقينا نظرة على اليمن وجدت «الحوثيين الشيعة» يملكون معظم الملعب اليمني عسكريًّا واقتصاديًّا وإعلاميًّا.. حتى أنهم سيطروا أخيرًا على العاصمة اليمنية.

والحقيقة أن حزب الله هو أعقل الشيعة.. وحماس هي أعقل السنة؛ لأنهم أقرب إلى فكر الدولة وأبعد عن فكر الميلشيات الهمجية.

إنها منظومة عجيبة من تغول الجماعات والميليشيات على الدولة الوطنية لا يمكن أن تجدها في أي دولة متقدمة أو حضارة في دول العالم كله.. بل لا تجدها الآن أبدًا في دول النمور الآسيوية.. ولا في الدول الأفريقية الصاعدة مثل جنوب أفريقيا والسنغال.. ولكن لا تعجب فأنت في بلاد العرب.

وبعد.. فهذه هي خريطة الوطن العربي.. الميليشيات المسلحة تتحكم وتسيطر على كل شيء.. والحكومات فيها لا وزن لها ولا تسيطر على شيء.. والإنسان العربي وقع بين مطرقة الدولة الوطنية فلم يدرك من إيجابياتها وخيرها شيئًا، وسندان الميلشيات المسلحة التي أصلتهم من بغيها وظلمها وعسفها وجنونها وحمقها وتكفيرها وقتلها بالاسم والمذهب والوظيفة ما جعلهم يقولون:

دعوت على عمرو فمات فسرني.. فجاء أقوام بكيت على عمرو

وأغرب ما في منظومة الجماعات والميليشيات المسلحة في بلاد العرب، أنك تجد كل جماعة أو ميليشيا لها ارتباطات إقليمية أو دولية قد تختلف تمامًا أو حتى

تتصـادم مـع ارتباطات الدولة نفسـها.. فارتباط «لبنـان» دومًا كان بفرنسـا في الغرب ودول حوض البحر المتوسط في الشرق وأوربا.. أما «حزب الله» فارتباطه الأساسي بإيران وحلفها.. أما «حماس» فارتباطها الأغلب بالإخوان وليس بمصر، مع أن ارتباط فلسطين وغزة الأساسي كان دومًا بمصر على اختلاف حكوماتها واتجاهاتها.. بل إن غزة كانت في يوم من الأيام تحت السيادة المصرية.

أما «جبهة النصرة» في سـوريا فهي تنظيم multinational (أي متعدد الجنسـيات) يضـم عشـرات الجنسـيات ولا يجمعه سـوى التكفيـر والتفجير والفكـر الجهادي.. وهـو يختلف عن توجهات سـوريا التي كانـت دومًا نحو لبنان ومصر وفرنسـا ودول الشام والخليج.

أما «داعش» في العراق فهو تنظيم تكفيري جهادي عولمي مكون أيضًا من عشرات الأجنـاس يجمعهم فكر التكفير والقتـال.. وهم يكفرون ويكرهـون الجميع تقريبًا.. وهم الآن يوجهون رسـائل قاسـية لأمريكا وتركيا ومصر.. رغم أن أمريكا وتركيا من الدول التي ساهمت في إيجاد داعش أصلًا.

هناك ملاحظة لا تخطؤها العين المبصرة للعالـم العربي: أن الجماعات والميلشيات المسـلحة تنتشـر في البلاد العربية الجمهوريـة دون الملكية.. فهي موجـودة في ليبيا والعراق واليمن وسـوريا ولبنان.. وفي فترة معينة كانت موجودة في سيناء بمصر بعد ثـورة ٢٥ يناير.. ولا توجد مثل هذه الجماعات والميليشـيات مثلًا في البلاد الملكية مثل المغرب أو السعودية أو الأردن أو الدول الخليجية المشابهة.

ولعل سائلًا يتساءل عن السر في ذلك فأقول:

لعلـه يعود للاسـتقرار السياسـي لهـذه الملكيـات.. ولضبطهـا للخطـاب الديني والإعلامـي.. بحيـث لا يصـل إلى دعـاوى التكفيـر والكراهيـة، أو إلـى الدعوة إلى الإلحـاد أو التحلل من الدين فهو خطاب وسـطي عاقل.. وكذلـك لارتفاع معدلات النمو الاقتصادي وحصول الفرد فيها على كل احتياجاته الاجتماعية والاقتصادية.

يمكننـا القـول «إنهـا منظومة عربية غريبة لا تكاد تسـتطيع فك شـفرتها.. إنها بلاد العرب التي لا تستطيع فك أسرارها أبدًا».

داعش.. الفكر والتنظيم

تنظيم داعش هو حديث العالم كله اليوم، وذلك بعد أن حقق انتصارات مهمة في مناطق السنة بالعراق وسيطر على مدن كثيرة بهذه المنطقة، ويعد نفسه لاقتحام عاصمة العراق بغداد.

فما هو تنظيم داعش؟.. وكيف نشأ؟.. ومتى وكيف ولد؟.. وما هي أفكاره؟.. ومن هم قادته؟.. وكيف حقق هذه الانتصارات؟.. وهل سيستطيع أن يقيم دولة أم لا؟

داعش: هي الاختصار لعبارة «الدولة الإسلامية في العراق والشام» وعمله في دولة العراق والشام.. ويعتبر هذا التنظيم الابن الحقيقي لتنظيم القاعدة في بلاد الرافدين.

أسسه أبو مصعب الزرقاوي ٢٠٠٤، الذي بايع زعيم القاعدة أسامة بن لادن، والذي قام بعمليات تفجيرات واغتيالات كثيرة في العراق عامة وفي مناطق السنة خاصة.. وبعد مقتل الزرقاوي انتخب المصري «أبو حمزة المهاجر» من سوهاج زعيمًا للتنظيم. وفي أواخر عام ٢٠٠٦ تم تشكيل ما سمي «تنظيم الدولة الإسلامية» بالعراق والذي تزعمه أبو عمر البغدادي.

ولكن المهاجر والبغدادي قتلتهما القوات الجوية الأمريكية، واعترف التنظيم بقتلهما.. وبعد اندلاع الثورة السورية تكونت «جبهة النصرة» أوائل عام ٢٠١٢ والتي توحدت مع «تنظيم الدولة الإسلامية» في العراق.

مناطق سيطرة داعش

تسيطر داعش على المناطق السنية في العراق، والتي كانت تابعة قبل ذلك لحزب البعث ومناصرة لصدام حسين.

أما في سوريا فسيطر أيضًا على مناطق السنة، مثل الرقة وحلب وريف اللاذقية ودمشق وحمص وحماة وأدلب وغيرها.

وبذلك يمكن القول: إن سماح السنة لتواجد مقاتلي داعش في مناطقهم هو ردة فعل على الظلم والضيم الذي لاقاه السنة من حكامهم الشيعة في العراق.. حيث حكم المالكي العراق بطريقة طائفية متعصبة أعطت كل شيء للشيعة، واستطاع الأكراد اقتناص نصيبهم منه كرهًا قبل وبعد وصول المالكي إلى السلطة.

أما السنة فقد استبعدوا من كل شيء محوري في قيادة العراق، بدءًا من المؤسسات السيادية والأمنية والجيش والشرطة.. وهذا يفسر التعاطف الكبير الذي حدث في مناطق العراق السنية مع تنظيم داعش.. وذلك ليس حبًّا في داعش ولكن كراهية لظلم المالكي وحكومته وطريقته الطائفية البغيضة في حكم العراق.

لقد أثبت بشار الأسد والمالكي أن أي حاكم طائفي لن يصلح لحكم أي بلد عربي.. وأنه لابد للحاكم ألا يكون متحيزًا لطائفة دون أخرى، أو أن يكون الجيش أو المؤسسات السيادية من طائفة معينة أو عرق معين أو فصيل بعينه.

إن المتأمل في تكوين داعش يجد أنها كلها تتكون من فصائل سنية من بلاد مختلفة اعتنقت أفكار التكفير والتفجير التي تؤمن بها القاعدة.. ودخلت فيها جنسيات كثيرة سنية من بلاد كثيرة بعضها مصرية أو سعودية أو تركية أو باكستانية أو.. أو.. حتى بريطانية أو أمريكية أو.. أو..

والجديد في تنظيم داعش أنه انضم إليه ضباط قدامى من الجيش العراقي الذي قام «بول بريمر» بحله.. وانتظم تحت لوائه بعض القوميين العراقيين.. ولذلك نجد أن خطاب داعش الآن بعد دخولها المناطق العراقية يختلف عن خطاب القاعدة قديمًا إذ تم تهذيبه وتطويره، بحيث لا ينفر السكان المحليين ولا يجعلهم يكرهون التنظيم بسرعة كما حدث من قبل مع التنظيم الأب بقيادة الزرقاوي، والذي احتشدت القبائل العراقية لدحضه والقضاء عليه.

إن الاستسلام غير المبرر للجنود العراقيين في مناطق السنة، يدل على يأسهم وقنوطهم من المالكي وحكومته وطريقته الطائفية.. وإنهم أرادوا أن يلقنوه درسًا قاسيًا حتى لا يهمش السنة بهذه الطريقة الفجة.

يضـاف إلى ذلك أن الجيـش العراقي الحالي قد فقد العقيدة القتالية، فهو لا يدري هـل يدافع عن الشـيعة فـي الجنـوب.. أم الأكراد في الشـمال.. أم يدافـع عن الوطن العراق الأم؟

وهل هو يخدم مصالح إيران في المنطقة.. أم هي مهمته على وجه التحديد؟

إن أخطـر مـا يصيـب الجيوش وأجهـزة الأمن فـي الدول، هـو فقدانهـا لعقيدتها العسكرية والأمنية، والتي تحدد بالضبط رسالته وهدفه و... و...

وقد خلصت شـخصياً إلى أن أي رئيس طائفي سـيفقِد لا محالة كل أجهزة الدولة عقيدة عملها وسيجعلها في حيرة من أمرها.. فلا تدري من تسالم ومن تعادي.. لأنها ببساطة ستتحول إلى أجهزة ومؤسسات طائفية بامتياز.

وقـد خلصـت من تجربـة حياتي إلـى أن كل الـدول الطائفية فاشـلة بامتياز وعلى رأسـها الآن العراق وسـوريا ولبنان.. وهي مؤهلة بامتياز للتقسيم والحرب بالوكالة، ووجود التنظيمات الطائفية المتطرفة والسماح بالتدخلات الأجنبية.

قـد يسـأل البعض عـن فكر داعـش؟.. فنقول: إن فكـره الأصلي هو فكـر التكفير والتفجيـر الذي نشَّـأته عليـه القاعدة في بـلاد الرافدين.. وهو يكفـر الجيوش العربية بلا اسـتثناء، وكذلـك الحـكام العرب جميعًـا والأحزاب السياسـية.. ويكفر الشـيعة جميعا.. ولا يؤمن إلا بالقتال سـبيلًا لإقامة الديـن والدولة.. وتاريخ داعش لا يعرف للعفو طريقا ولا للرحمة في الحروب سبيلا.

والسؤال المهم: هل يستطيع «تنظيم داعش» إقامة دولة؟

لـن يسـتطيع أي تنظيم يعتنـق فكريّ التكفيـر والتفجير أن يقيم دولـة.. والخوارج لـم يقيموا دولة رغم جيوشـهم الكثيـرة.. ولـم يحدث في تاريخ الإسـلام أن أقام هذا الفكـر دولة.. لأنه يملـك مقومات تفجير وتدميـر الدول وليس إقامتهـا، ولأن الفكر يعادي الجميع ويكفره ويسـتبيح دمـه. فالدول في الغالب تقوم علـى فكريّ التعددية والتسـامح مع الآخـر المختلف عقائديًّا وفكريًّا.. حتى إن حـدث وأقام دولة فإن هذه الدولـة تنفجر مـن الداخـل.. لأن فكر التكفيـر كالقنبلة الانشـطارية التـي تتمزق بين الحين والآخر إلى شظايا.

ولذا لم تنجح القاعدة في إقامة دولة في أفغانستان بل كانت سببًا في ضياع دولة طالبان.. ولم تستطع ذلك في الصومال.. ولم تستطع ذلك في اليمن.. ولا في مالي ولا في أي مكان مهما ملكت من السلاح والعتاد.

فالدولة ليست سلاحًا وعتادًا.. ولكن فكر دولة ورجال دولة وعقل دولة.. وهذا لا يوجد في أي تنظيم تكفيري.

وبالمقابل فإنني أعتقد أنه لن يصلح أمثال المالكي أو أي طائفي متعصب لحكم الآخرين حكمًا رشيدًا صالحًا.. مهما أوتي من قوة وبأس ونفوذ، أو حتى أصوات في الصناديق.. ومن يرد أن يفهم أكثر فليراجع سيرة النبي ﷺ في إدارته للدولة والحياة وتعامله مع الآخرين.

فلا داعش ولا المالكي يصلحون لحكم العراق ولا غيره.

داعش.. والقاعدة

نشـأ النـزاع الكبير بين شـركاء الأمـس من الجهاديـين القاعديين في سـوريا، ولم يسـتطع قائد القاعـدة الحالي الدكتور أيمـن الظواهري احتواء الخـلاف الكبير الذي فجـر الاقتتال والصراع الدموي، بين تنظيمي «الدولة الإسـلامية في العراق والشـام» بقيادة أبو بكر البغدادي.. وتنظيم «جبهة النصرة» بقيادة أبو محمد الجولاني.

وبعـد نداء مسـجل للظواهري يدعو المتنازعيـن من التنظيميـن وقياداتهما لحقن الدمـاء بيـن المقاتليـن، رد عليـه بطريقة مسـتفزة وقاسـية من خلال المتحدث باسـم تنظيـم «الدولـة الإسـلامية» أبـو محمـد العدناني في تسـجيل نـال رواجًا كبيـرًا على الشـبكة العنكبوتيـة بعنوان «عذرًا يـا أمير القاعدة» مما اضطر القاعـدة وجبهة النصرة للرد الإعلامي من خلال أبو مارية القحطاني بعد أن شعرت القاعدة بالإهانة الشديدة نتيجة للغة القاسـية التـي خاطب بها العدنانـي قائد القاعدة.. مع اسـتمرار القتال بين الطرفين وصولًا لزعامة المشهد الجهادي وإمارة التنظيمات المسلحة.

نقطـة انطلاق الخلاف كانت من خطأ أبي مصعب الزرقاوي، الذي اسـتحدث في ممارسـاته علـى الأرض أسـاليب للقاعدة كانت هي الأكثر تشـددًا وعنـادًا في تاريخ القاعدة، بالرغم من إعلانه البيعة لأسامة بن لادن.

اسـتحداثات الزرقـاوي المتشـددة المتمثلـة فـي توجيـه ضربـات قويـة للشـيعة والمدنيين العراقيين من الطائفة الشـيعية.. وكذلك السـير فـي طريق الصدام مع قوى وفصائل إسـلامية أخرى مثل «الجيش الإسـلامي» و«سرايا ثورة العشرين».. حركت الجدل واللغط والانقسـامات والنقاشات المحتدمة داخل القاعدة، وصارت القاعدة من يومئذ قاعدتين إحداهما تسير على خط الزرقاوي ونهجه المتشدد.

ومـن أهم رموز هذا التوجه أبو حمـزة المهاجر وأبو بكر البغدادي – زعيم داعش لاحقًـا – فقـد كانا – ولا يزال البغـدادي – أقرب ولاءً لفكر واسـتحداثات الزرقاوي منهـم إلى تأصيلات وأدبيات بن لادن والظواهري التي تجنح – على تشـددها – إلى الترشـيد والمرونة في المواقف السياسية والحربية، مقارنة بصرامة الزرقاوي وتشدده وعناده وصلابته ومن بعده المهاجر والبغدادي.

تنبه أسـامة بن لادن فـي آخر حياته قبل اغتياله بباكسـتان لخطـورة نهج الزرقاوي والمؤيديـن لـه، فأجرى بعـض المراجعـات الفكرية، التـى ظهرت في صـورة وثائق أفرجـت عنها السـلطات الأمريكية لاحقًا.. معربًا فيها عن عـدم ارتياحه ومعه قيادات القاعـدة لأداء أبـي مصعب الزرقاوي وتوجهاته التي تأتي على أقصـى يمين القاعدة.. وفتحت هذه المسـاجلات داخل القاعدة باب الانقسـام داخـل التنظيم إلى تنظيمين، أحدهما مبهور ومؤيد لما فعله الزرقاوي في العراق.. والآخر مؤيد لـبن لادن وعلى قناعـة بأفكار وأدبيات التنظيم التقليدية، التي تجعل القتال في وجهة المصالح الغربية والأمريكية، دون الدخول في صراعات ومواجهات كالتي خاضها الزرقاوي بالعراق، مع الحفاظ على سرية هذه الخلافات.

عوامل كثيرة جعلت قادة القاعدة وعلى رأسـهم بن لادن يتجنبون إعلان الخلاف مع الزرقاوي الذي بدأ يكتسب شهرة في العراق.. أهمها الحرب العالمية الشاملة التي تعرضـت لها القاعدة والملاحقات الأمنية لقادتها؛ مما جعل بن لادن يؤثر السـكوت حتـى لا يضعـف التنظيـم ويظهـر أمـام العالـم والولايات المتحـدة أن به انشـقاقات أو انقسـامات داخليـة، فـي ظل تلك الظـروف العصيبة التـي كان يمر بهـا التنظيم في تلك المرحلة.

أما التمايز والانفصال والانقسـام الواضح فحدث، عندما أعلنت جبهة النصرة في سوريا بقيادة الجولاني انتماءها للقاعدة بوضوح ومبايعتها للظواهري، وهي الحقيقة التـي أخفتهـا طويلًا مـع اسـتمرارها دون الاصطدام بفصائل مسـلحة أخـرى، ودون الإعـلان عـن هويتها في مشـهد القتال والحرب في سـوريا.. وكان هـذا الإعلان في إبريل عام ٢٠١٣م.

ولـم يكـن هـذا الإعلان الذي مثـل مفاجـأة لكثير مـن المراقبيـن إلا ردة فعل من الجولاني وقادة جبهة النصرة على إعلان أبو بكر البغدادي قائد تنظيم الدولة الإسلامية في العراق ضمه لجبهة النصرة لتنظيمه.. وأن جبهة النصرة جزء من تنظيم الدولة.. وهو الأمر الذي رفضته الجبهة بشدة معلنة ولاءها التام للقاعدة الذي اعتبرته التنظيم الأم.

ومـن هنا انطلقت الحـرب الإعلامية بين الطرفين، وكذلـك الصراع الدموي على الأرض، سـعيًا مـن البغدادي لفـرض رؤيته الزرقاوية المنشـأ على القاعدة بأسـرها، وضم كل فصائلها لتنظيم الدولة وليس فقط جبهة النصرة في سوريا.

الآن نحن أمام مشهد واضح لتنظيم القاعدة الذي انقسم إلى اثنين: أحدهما «تنظيم الدولة» بقيادة البغدادي الذي أعلن نفسه خليفة لاحقًا، ودعا كل الفصائل وكل القيادات الجهادية لمبايعته والرضوخ لقيادته.. وهو تنظيم أعنف وأكثر دموية ووحشية وتطرفًا وتشددًا وغلوًّا من تنظيم القاعدة التقليدي الذي يقوده الآن أيمن الظواهري ويدين له بالولاء الجولاني في سـوريا، وعلى امتداد خريطة القاعدة في العالم أصبح هناك من أعلـن من قيـادات القاعدة ولاءه وتأييـده للقاعدة التقليديـة وللجولاني والظواهري، وهناك من أعلن مبايعته وتأييده ودعمه لداعش وزعيمها أبو بكر البغدادي.

القاعدة التقليدية: فصائل متفرقة تقاتل بصورة مستقلة ومنفصلة، لا تتبنى الدخول فـي معـارك وصراعـات مع فصائل إسـلامية أخـرى، وتتحفـظ في تكفيـر المخالف ولا تسـعى للاصطـدام بمحيطها المجتمعـي، وتصب اهتمامها القتالـي على مواجهة الولايات المتحدة والأنظمة العربية المتحالفة معها - بحسب تصورها -.

لكـن داعـش: تنظيـم احتوائـي إمبراطـوري التوجه، يسـعى للتمدد في المسـاحة الإسـلامية ويعلن عداءه الواضح لكل المخالفين له من الطيف الإسـلامي والشـعبي والمجتمعي، فهو يسـعى للتربع على عرش الحركات الجهادية لتهيئة المناخ والتفرغ لمشاريعه الإمبراطورية تحت عنوان إعلان «دولة الخلافة».

داعش.. والشيعة.. وإسرائيل

العامـل الأكبـر في نجاح أبو بكـر البغدادي وداعش في التوسـع والتمدد، هو لعبه بالورقة الطائفية المذهبية وضم الشباب السـني الجهادي لما يقارب شكل الائتلاف السـني الجهـادي لمواجهـة إيران وحلفائهـا وعملائها فـي المنطقة.. مصـدرًا خطابا سـاخطا على العرب وحكامهم، بسبب الفشل في مواجهة التمدد الإيراني والتوحش الشـيعي ضد أهل السـنة، ومواجهة أطماع إيران التوسـعية.. لذلـك كان الإغراق من داعـش فـي البعد الطائفي، ومباشـرة الصدام والصـراع مع إيران والقوى الشـيعية هو أهم صفاتها.

فمـا هـو أفـق هـذا التوجـه؟.. وما هـو مصيـر هـذا الصـراع الطائفي علـى أرض العراق وسوريا؟

وهـل هنـاك مصلحة حقيقية وراء هذا النهج الذي دشـنه أبو مصعب الزرقاوي في العراق وطوره وأمعن فيه زعيم داعش الحالي أبو بكر البغدادي؟

وإلى أي مدى يخدم هذا الصراع الطائفي وحشـد المقاتلين السنة لمواجهة وقتال فصائل مسلحة تابعة لإيران وحزب الله داخل سوريا والعراق؟

إلـى أي مدى يخدم المسـلمين والأمـة في مواجهة الخطر الأكبـر والحقيقي على العرب والمسلمين المتمثل في العدو الصهيوني؟

إيـران سـارعت بـكل قوتها الماديـة والاسـتخباراتية والعسـكرية لإنقـاذ الأنظمة الحليفة لها في المنطقة خاصة في العراق وسوريا.. واستفز ذلك الحركات الإسلامية التقليدية التي أرسـلت مقاتلين لها يشـاركون التنظيمات السنية في القتال وخاصة من مصر، التي كادت تتورط في هذا المستنقع الطائفي أثناء حكم الدكتور مرسي بمباركته

إرسال الجماعات والحركات الإسلامية مقاتلين للأراضي السورية، وإعلانه الواضح في وجود قيادات الحركة في استاد القاهرة استعداده لما هو أكبر من هذا بقوله ـ وهو رئيس الدولة ـ : «لبيك يا سوريا»، بما يفهم منه أن مصر من الممكن أن تذهب لما هو أكبر وأعقد من مجرد مباركة إرسال مقاتلين ودعم للتنظيمات السنية المسلحة هناك، بما ينذر بجر المنطقة بأكملها لصراع وحرب طائفية تدميرية لا تبقي ولا تذر.

إن رئيس مصر قد أعلن ذلك في حضور قيادات من حركات إسلامية لها تاريخ جهادي، هو في الأساس أحد قيادات حركة الإخوان المسلمين، أكبر تنظيم حركي إسلامي سني في العالم بسيناريو مقلق ومخيف لا يخدم على المدى المنظور سوى إسرائيل والمصالح الأمريكية، وبما يتماهى مع مخطط تقسيم المنطقة على أسس مذهبية وطائفية.

حزب الله الشيعي اللبناني ضحى بصورته البراقة في الضمير العربي ونقل معركته من الجنوب اللبناني إلى الداخل السوري، في نقلة واسعة لم تكن في الحُسبان عززت من نهجه الطائفي وأطفأت ما تبقى من وهج المشروع المقاوم ذي الشعارات العروبية الزاعقة، التي تستمد حضورها وبقاءها من مداعبة الخيال العربي المكلوم، حتى ولو لم يكن لها ترجمة فعلية على أرض الواقع.

الحزب الشيعي لم يجد مبررًا لانغماسه في الدم السوري خلف إيران ونظام الأسد لأغراض ومطامع طائفية خالصة، سوى ترديد النغمة السورية حول مؤامرة كونية صهيونية تكفيرية على مشروع المقاومة والممانعة، مع حديث متهافت عن حماية مقامات دينية كمقام السيدة زينب في سوريا في وجه تهديد إسلاميين متشددين له.

أي أن الحزب اتخذ الحضور المسلح للتكفيريين السنة في سوريا كذريعة لتدخله المسلح هناك.

ولاقى هذا المبرر المفتعل ارتياحًا غربيًّا وإسرائيليا، فما كان الغرب والولايات المتحدة وإسرائيل ليسمحوا بهذا الحضور المباشر المسلح لمليشيات حزب الله في الداخل السوري إلا اضطرارًا، دفعًا لضرر وهمي نجح حزب الله والأسد في

تضخيمـه والتهويـل منـه وإخافة الغرب من خطره، والغرب يسـعى ابتـداءً لخلق هذا الحضور السني الشيعي المتصارع المسلح.

حضور حزب الله الشـيعي المباشـر في سـوريا ليس لحماية الأسـد من السقوط، أو دفاعًـا عن نظام سياسـي ليبقى كما هـو في الحكم - كما ردد نصـر الله - إنما كان دفاعًا عن مشـروع بحجم المشـروع الإيرانـي في المنطقة، ولإيجـاد أرضية للحزب ولمشـروع إيران المذهبي في الواقع السياسي السوري في مرحلة ما بعد سقوط بشار الأسد.. وكذلك الحضور المسلح لفصائل الجهاديين السنة التي لم تنجح في استثمار الواقع السياسـي ومناخ السـخط الشعبي في إسقاط نظام الأسـد.. إنما تم استخدامها كأداة لتكريـس بقائـه بتورطهـا في صراعات مذهبيـة طائفية، ودخولهـا في صراعات دموية بينها وبين مخالفين لها من داخل الطيف الجهادى السـني نفسه، بما هيأ المناخ لنظام الأسـد للعب على هذه المتناقضات وتقديم نفسـه كمنقذ لسـوريا من الإرهاب - علـى حد زعمه - وأن ما جرى لم يكن مطالبات شـعبية بإصلاحات سياسـية، إنما مجرد مؤامرة خارجية لضرب الداخل السوري والاستيلاء على السلطة.

ما حدث على الأرض السـورية بين إيران وحزب الله من جهة وإسـرائيل وأمريكا وروسيا من جهة.. وبين الجيش الحر والتنظيمات الجهادية السنية مثل «أحرار الشام» و«جبهة النصرة» و«تنظيم الدولة الإسلامية»، هي مجرد حرب تقليم أظافر وقصقصة أجنحـة.. فـي محـاولات حثيثة لصناعـة واقع متـوازن ترضـى عنه جميـع الأطراف المتصارعـة من مختلـف الطوائف، وتقبل بالتعايش معه مسـتقبلًا كبديل لا يقل ولاءً عن نظام الأسد، الذي طالما أثبت صرامة وحسمًا في الولاء للعدو الصهيوني والدفاع عـن أمن واسـتقرار حـدوده طيلة أربعة عقـود، في واقـع جديد تذهب فيـه كل طائفة بمنطقة جغرافية نجحت في السـيطرة عليها.. بمعنى الإسـهام في تقسيم المنطقة، مع بقاء إمكانية اشتعال الصراع المذهبي بين اللاعبين الجدد الذين شدوا الرحال لسوريا في أي مرحلة لإبقاء إسرائيل في مأمن في محيط طائفي سني شيعي متصارع.

ومن يتصور أن أحدًا من المليشـيات الشـيعية سـواء التابعة لحزب الله أو غيرها، أو من المليشـيات التكفيرية السـنية قادرًا على إنهاء وحسـم الصـراع لصالحه والفوز

بسوريا أو العراق كاملة غير منقوصة، فهو واهم لا يدرى شيئًا عن الحسابات الدولية والإقليمية وحساسية هذه المنطقة، ومدى دقة الترتيبات الدولية والإقليمية بشأن مستقبلها.

رصدنا في هذا السياق موقف تنظيم القاعدة ومحاولته الظهور في المشهد استباقًا لحدث السقوط المرتقب، على حساب إلصاق الالتزام القاعدي والولاء للظواهري بجبهة النصرة، وكذلك حضور تنظيم آخر أشرس وأشد تطرفًا هو داعش.

وموقف القاعدة ـ ممثلة في «جبهة النصرة» و«تنظيم الدولة الإسلامية» بقيادة البغدادي ـ الذي استبق الأحداث هو الآخر بإعلان ضم جبهة النصرة لتنظيمه- وحزب الله مبني على معطيات الوقائع العسكرية والتحولات الكبيرة على الساحة الميدانية والمشهد السياسي.. إذا ما حان لاحقًا موعد التخلص من الأسد بطريقة أو بأخرى.

وما يستدعي ذلك تهيئة الأرض السورية لاستقبال ورثة نظام الأسد، في واقع مختلف تريده القوى الدولية والعدو الصهيوني أكثر ضعفًا وتوترًا، وأكثر حاجة لإسرائيل والتحالف معها من نظام الأسد نفسه.

حدث في مرحلة من المراحل أن قصفت الطائرات الحربية الإسرائيلية شحنة من الصواريخ المتطورة والأسلحة الإستراتيجية التي يمتلكها نظام الأسد.

وهذه العملية أكدت بوضوح للجميع أن قرار إسقاط نظام بشار الأسد العتيد، ثم مباشرة إسقاطه بالفعل، ليست في يد تنظيم القاعدة وداعش والبغدادي والجولاني والظواهري، إنما عند الصهاينة وفي غرفة التحكم المركزية في تل أبيب.

تخشى إسرائيل ابتداءً من تعاظم قوة ودور حزب الله في مرحلة ما بعد بشار الأسد.. وكذلك تتخذ كل الاحتياطات والإجراءات اللازمة لمنع تعاظم قوة ودور الميليشيات السنية المسلحة تحضيرًا لواقع ما بعد بشار الأسد القادم عاجلًا أو آجلًا.

فحزب الله ذاهب ـ ليس لحماية الأسد من السقوط أو دفاعًا عن لبنانيين أو مقامات دينية كما أشاع ـ إنما للعب دور سياسي ببعد عسكري لملء الفراغ المذهبي الذي

سيعقب سقوط الأسد.. ولنفس الغاية تقريبًا ذهبت القاعدة تحت مظلة جبهة النصرة وحضر تنظيم الدولة الإسلامية وغيرهما من الفصائل الجهادية السنية.

إسرائيل تحرص على ألا يمتلك حزب الله من جهة والقاعدة وأخواتها من جهة أخرى هذه القوة المتعاظمة.. في محاولة كانت على ما يبدو لوراثة النظام الأسدي ببعدين:

الأول: سياسي كانت ستقوم به إيران على غرار ما تقوم به في العراق، ليتطور الأمر في سوريا على منوال ما حدث في العراق، من تكريس للواقع الطائفي المؤدي للضعف والتردي والصراعات الدائمة.

الثاني: عسكري سيتكفل به حزب الله والقاعدة وأخواتها بالتنافس والصراع على السيطرة على أسلحة وذخائر الأسد الإستراتيجية.. وهو ما سعت إسرائيل لإجهاضه.. وذلك بضربها لقوافل كانت تنقل أسلحة سورية للحزب قبل بضعة أشهر.. ثم أكدته إسرائيل بضربة أكثر قوة وتركيزًا وتأثيرًا ووضوحًا دمرت شحنة الصواريخ الإستراتيجية قبل أن تقع في قبضة حزب الله أو منافسيه السنة.

الشيخ عبد الرحمن العكاي عضو هيئة العلماء الأحرار في سوريا، زعم أن إسرائيل تحركت وضربت ضربتها الجوية الأخيرة لإنقاذ الأسد من انقلاب عسكري انطلق من داخل المقرات والثكنات الأسدية.

مؤكدًا أن نظام الأسد قام بالتنسيق مع الكيان الصهيوني لضرب هذه المقرات للقضاء على الانقلابيين وإحباط المحاولة، حتى لا يفقد النظام مؤيديه الذين تبقوا له في حال قيامه هو بضرب رجاله وضباطه.

إذا صحت الرواية التي قال راويها إنه نقلها عن شهود عيان.. فإن النتيجة لن تختلف كثيرًا سواء ضربت إسرائيل بالتنسيق مع الأسد أو بدون علمه، فضعف قوات الأسد وهشاشة دفاعاته الجوية صار أمرًا لا يخفى على أحد.

وبمعنى آخر أن الذي يبقي على الأسد هو الإرادة الدولية ورغبة إسرائيل في بقائه.. وإلا لو كانت هناك إرادة فعلية لإسقاطه، لتم ذلك بشكل أسرع من إسقاط معمر القذافي.

ليس فقط لسهولة استباحة الطيران الصهيوني الأجواء اللبنانية والسورية معًا ـ وهذا يؤكد إمكانية إقامة منطقة حظر جوى تمهيدًا لإلحاق الهزيمة بالأسد وقواته وإعدادًا لخطوة اعتقاله أو قتله ـ وإنما أيضًا لأن الجيش اللبناني لم يشهد اختراقًا وانشقاقًا كبيرًا كالذي شهده الجيش السوري الذي بات في أضعف حالاته.

كل هذا معروف وشواهده ودلالاته واضحة للعيان.. فمصلحة إيران وحزب الله ونظام الأسد وأمريكا وروسيا والقاعدة وتنظيم الدولة الذي يتزعمه البغدادي تكاد تكون مشتركة.. لذا فغاية أي تحرك لهذه القوة أو تلك على أرض الواقع ليس إلحاق الضرر الكامل بالآخر أو إلحاق هزيمة مدوية به.. إنما فقط لتحقيق الحد الأدنى من توازن القوى.. بحيث تظل إسرائيل على الأقل كما هي مطمئنة تمامًا لولاء النظام الذي سيحكم سوريا بعد رحيل نظام الأسد ومطمئنة تمامًا لبقاء حدودها آمنة.

وإذا أوشك النظام الحليف الذي كان يحمي هذه الحدود على السقوط.. فإن إسرائيل بنفسها وبكامل قوتها الجوية جاهزة لحمايتها بنفسها.

إسرائيل ليست مستعدة لقبول سقوط الأسلحة الإستراتيجية التي لم يستعملها النظام الأسدي ـ الأب والابن ـ طوال أربعة عقود، في يد جهة ليست مضمونة تمامًا من ناحية الولاء التام للصهاينة في مرحلة ما بعد الأسد، سواء في يد فصائل مسلحة شيعية أو سنية.

لم يرد الأسد على الغارة الصهيونية، فوجوده مرتبط بالرضا الصهيوني.

هذا من جهة.. ومن جهة أخرى فالضربة الجوية الإسرائيلية لم تكن موجهة للأسد في الأساس ليرد عليها ـ حيث هو في حكم الميت الذي ينتظر دفنه ـ ولكنها موجهة للأطراف التي سترث نظام الأسد وستحكم سوريا من بعده.

وهي ليست جهة واحدة.. إنما جهات ملونة بالمذهبية والطائفية.. متصارعة ومتنازعة لحساب أمن واستقرار إسرائيل وقوتها.

الفصل الثاني

الأبعاد السياسية والإستراتيجية لداعش

الجهاديون.. هل هم مجرد أداة؟

جيوش البلاد العربية والإسـلامية هي المؤسسـات الكبرى التي ترمز لهيبة الدولة وقوتهـا وتماسـكها.. ولاشـك أن العلاقة بينها وبيـن الحركات الإسـلامية بتنوعاتها شـهدت الكثيـر مـن التوتـرات والصراعـات السـاخنة والبـاردة، مـع سـعي الحركة المتواصل منذ خمسينيات القرن الماضي للوصول إلى السلطة.. ولما كانت الجيوش هـي الداعم الأكبر والسـند والظهير الأقوى لأنظمة الحكـم القائمة، فلم تكن العلاقة يومًـا على ما يرام بينها وبين الإسـلاميين على اختلاف تنوعاتهـم.. وصولًا لتكفيرها والبـراءة منـه، والقول بوجوب قتالها وتفكيكها لإقامة جيوش إسـلامية خالصة، وفق مفاهيم وتصورات التنظيمات التكفيرية المتشددة.

ومع تطورات الأوضاع واختلال موازين القوى والمستجدات على الساحة العربية والشـرق أوسـطية بعد انتفاضـات الربيع العربـي، ووجود رغبات مبيتـة ومخطط لها لإعادة تقسـيم المنطقة جغرافيًّا على أسـس مذهبية، رسخت قناعات لدى التنظيمات التكفيريـة الأكثر تشـددًا في الطيف الإسـلامي حـول ضرورة التخلـص من الأجهزة الأمنيـة وجيـوش المنطقـة، لارتبـاط تلـك التنظيمات من جهـة باسـتخبارات الدول الغربية وخاصة المخابرات الأمريكية وسيرها وفق رؤيتها التفكيكية للشرق الأوسط.

ومـن جهة أخـرى ليقينهـا بأنها لن تسـتحوذ على السـلطة ولن يصفـو لها الحكم إلا بعد التخلص من تلك الجيوش وتلك الأجهزة الأمنية.

وبذلـك يقـع التكفيريون وداعش في فـخ مخطط المخابـرات المركزية الأمريكية التقسـيمي، بعـد أن وقعـت الحركة الإسـلامية التقليدية في فخ التيـارات والحركات

الشـيوعية المتعاونة مع منظمات صهيونية، والتي عملت على جعل الإسلاميين كأداة لإنهاك الجيش المصري وتفكيكه.

ونُشـرت مؤخرًا معلومات موثقة بالمسـتندات عن رصد اتصالات ودعم وتمويل قيادات شـيوعية مصرية مع منظمات صهيونية لصنع اقتتال داخل الجيش المصري.. وتحدث سـامح نجيب القيادي بالاشـتراكيين الثوريين -وهو تيار شـيوعي مصري - في مؤتمر علني عن ضرورة تدمير القوات المسلحة المصرية.

الشيوعيون ومن شايعهم يبحثون عمن يستجيب لمخططهم الانقلابي، فيقع اقتتال داخل القوات المسـلحة بين معارضي الجيش ومؤيديه، ثم الاقتتال مع الشـعب حتى يلقى الجيش المصري مصير ما حدث للجيشين الليبي واليمني أو الجيش العراقي.

وهكذا نكتشـف أن خطـط العداء في الخـارج والخصوم السياسـيين في الداخل تجد دائمًا من الإسـلاميين من ينفذها ليكونوا مجرد أداة لتحقيق أهداف بعينها.. فإذا مـا تحققت تلك الأهـداف تخلوا عنهم وربما عمدوا للتخلـص منهم، كما حدث في سـيناريو العلاقة بين تنظيم القاعدة والولايات المتحدة، ابتداءً من التحالف والشراكة والتمويل، إلى العداء والحرب والقتال.

الأمر جد خطير إذًا.. حيث يُسـتخدم الإسـلاميون بمختلف تنوعاتهم كأداة سهلة التحريـك والتوجيه ويضطلع بالمهمة الكارثية، التي من شـأنها تسـهيل فرض الإرادة وإذلال الأمـة لعقـود قادمة، ونهـب ثرواتها والتحكـم في مقدراتهـا.. متوهمين أنهم يعيدون تشـكيل المنطقة وفـق تصورهم وأمنياتهـم.. بينما يعمل الاسـتعمار الجديد الذي أعاد ترتيب أوراقه، وصار يسـتخدم أسـاليب وآليات جديدة تختلف عن شـكل الاحتلال التقليدي القديم على تشـكيلها وفق خريطة الشرق الأوسط الجديد.. لتظل إسـرائيل هـي الأقوى وهي المهيمنة على الإقليم، وتظل مصـر ودول المنطقة منكفئة ومنشغلة بنفسها لا تصحو أبدًا من صراعاتها الداخلية.

الإسلاميون السُّنة.. في خدمة المشروع الشيعي دون أن يقصدوا..

البداية مع سحب بساط المقاومة من الجناح السني العربي بعد الثورة الإيرانية، التي أعقبها اجتياح إسرائيل للجنوب اللبناني وإنشاء حزب الله وإفراغ المقاومة من مضمونها لحساب بناء الإمبراطوريات وصراع المذاهب، انتهاءً بغلق باب المقاومة ضد إسرائيل، ومساواة جبهة الجنوب اللبناني بجبهة الجولان كحامية للحدود مع إسرائيل.. ثم اليوم تشتيت الأجنحة السنية وسحبها لجبهات بعيدة عن استهداف إسرائيل، بأن تنشغل بالضرب في الداخل العربي سواء العراقي أو السوري أو المصري.. وبذلك تبقى إسرائيل في مأمن على كل الجبهات.

مقاومة إسرائيل أصبحت موضة قديمة في صفحة تلميع «حزب الله اللبناني» وإكسابه المشروعية، وحتى يغطي على تدخله في سوريا مؤخرًا، وعلى تبنيه الرؤية الأمريكية بحسب التطورات الجديدة التي صاحبت دعم أمريكا للمحور الشيعي على حساب المحور العربي السني التقليدي.

ذهب الحزب بعيدًا في تقديم نفسه كذراع عسكري للولايات المتحدة الأمريكية - وليس لإيران فقط - في حربها ضد الإرهاب والتنظيمات التكفيرية السنية المسلحة التابعة للقاعدة كجبهة النصرة، وفي مواجهة تنظيم داعش الذي توحش وشب عن الطوق، وخرج من بيت الطاعة الأمريكية على غرار ما فعله سابقًا أسامة بن لادن.. ولم ينسَ الحزب على لسان زعيمه حسن نصر الله ترديد نفس النغمة التي ترضي أمريكا، زاعمًا حرصه على حماية الأقليات والمسيحيين.

زعيم حزب الله حسن نصر الله في ذكرى عاشوراء ١٥ نوفمبر قال:

«إن وجود مقاتلينا على الأرض السـورية هو للدفاع عن لبنان والقضية الفلسطينية وعـن سـوريا، في مواجهـة كل الأخطار التي تشـكلها هذه الهجمة الدوليـة الإقليمية التكفيرية على هذا البلد».

يحاول حزب الله الشـيعي هنا اكتسـاب شـرعية جديدة بديلًا عن شـرعية مقاومة إسـرائيل التـي صارت ضربًا مـن الخيال.. ويؤجـج مع التدخـل الإيراني والألاعيب الدولية الصراع الطائفي ويمهد بقوة لانتصار شيعي على الجماعات السنية التكفيرية، لحساب توسعة النفوذ الإيراني في العراق وسوريا.. ولصالح الحلف الغربي الشيعي الجديـد الـذي سـعت الولايـات المتحـدة لتقويته على حسـاب العلاقات مع السـنة والعرب.. وهو توجه يخدم في الأساس أمن إسرائيل والمصالح الأمريكية في المنطقة، بإضعاف الدول العربية الكبيرة وتقليص نفوذها وفي مقدمتها السعودية ومصر.

ولـن تجد الولايـات المتحدة الأمريكية ما تملأ به فراغ داعـش وجبهة النصرة في العراق وسوريا، إلا بحليفتها المفضلة إيران وأذرعها السياسية والعسكرية.

التحركات علـى الأرض أثارت مخاوف العواصم العربيـة، وأتى الاتفاق النووي الإيرانـي الغربـي وتطبيع العلاقـات الأوربية مع إيـران داعمًا لهـذا التوجه، وصارت الـدول العربيـة السـنية علـى قناعـة أكثر مـن أي وقت مضى بـأن الغرب بـات يفضل تهميـش العـرب والتخفف من مشـاكلهم التـي لا تنتهي، مع تغذية المحـاور الداعمة للتحالف مع ما يعرف بالهلال الشيعي بكل الوسائل الممكنة.

بالطبـع موقـف البلاد العربيـة المتضررة من تلـك الإسـتراتيجية المخيفة واضح، وربمـا جـاءت مواقـف السـعودية أكثر قـوة، ومن السـهل قراءتهـا كرسـائل موجهة للولايات المتحدة، بأنها لن تستسلم ببساطة لهذا المخطط الذي يستهدفها أيضًا كقوة إقليمية، إذا ما رضيت بتمرير الأوضاع على الهوى الغربي في مصر وسوريا.. ولذلك قال وزير خارجيتها سـعود الفيصل : «**لن نسمح بأن يتلاعب المجتمع الدولي بمصير مصر ويعبث بأمنها واستقرارها**».. لأن معنى العبث بمصر هو أن العبث بالسعودية آت لا محالـة عما قريب، ليخرج الشـكل النهائي للمنطقة بعـد التعديل والتدجين والفتن والصراعـات والحـروب الطائفية، وتوجيـه الطاقات والمواجهات نحـو إيدلوجيات

ومناطـق وصراعـات، بعيدة تمامًا عن الصراع الأساسـي والأهم وهـو صراع العرب والمسلمين مع الكيان الصهيوني.

تبدو اسـتخبارات الدول العربية ـ وعلى رأسها الاسـتخبارات السعودية ـ واعية لهذه الألاعيب.. لكن الحديث يدور حول وعي التنظيمات المسلحة السنية التكفيرية في سـوريا ومصر والعـراق تحديدًا.. لا بل إن هناك بعض تنظيمـات منها في البلدين علـى ارتباط قـوي بالمخابرات الأمريكيـة والإقليمية وليس اختراقًـا، إنما من منطلق تحالف وتعاون وتمويل مباشر.

حزب الله مع إيران بصدد استكمال وبناء إمبراطورية على أنقاض دول ومؤسسات عربية تم إسقاطها بالفعل في العراق ولبنان وسوريا.. ويعتبر لبنان دولة عاجزة فاشلة، وأصبحـت رهينة لـلإرادة الإيرانية.. في حين بقيت الدولة المركـز ـ إيران ـ موحدة قوية، وها هي تمتد في فراغ دول عربية ممزقة أو مقبلة على التمزق.

فـي المقابل تخدم التنظيمات التكفيرية تفتيت الدول العربية الكبرى وتضعفها في مواجهة المخطط الكبير الأمريكي الشيعي.

هنـاك تكفير سـني متبـادل وصراعات سـاخنة وتفجيـرات وتحريض علـى القتل واستهداف مؤسسات دول، يخدم الانقسام والفتن داخل المحور العربى المستهدف.. أي أن الداخـل العربـي الإسـلامي السـني يمور بالفتـن والصراعات والانقسـامات، وغـارق فـي الدماء والفوضى في مقابـل توحد وتحركات مدروسـة خلف إيران التي تبدو مسـتقرة سياسـيًّا وموحدة من الداخل، فضلًا عما أحرزته من نجاحات في ملفها النووي وأسـلحتها الإستراتيجية، التي أصبح طبيعيًّا السكوت عنها دوليًّا، تحت مظلة التحالف الإيراني الغربي الجديد.

فضـلًا عن مواقـف فصائل التيار الإسـلامي التقليدية، وعلى رأسـها الإخوان بعد إسـقاط الدكتـور مرسـي، التي تصب فـي إبقاء مصر إلـى وقت طويل فـي حالة عدم اسـتقرار سياسـي وفـي دائـرة الخطـر، بإدامة الصـراع والنـزاع مع الجيش والسـلطة الجديدة برئاسة المشير عبد الفتاح السيسي.

إيران.. كيف استفادت من داعش؟

مـا حـدث فـي العراق ما هـو إلا انفجـار للغضب الشـعبي - غالبيته سـني بطبيعة الحـال - ضد الاضطهاد والظلم والتمييز الإيراني من خلال المالكي ونظامه الطائفي البغيض.. فاسـتبقت إيـران والولايات المتحـدة الأمريكية الأحداث، وسـعتا لتدمير الانتفاضـات العربيـة بتصدير داعش للمشـهد، تمهيـدًا لدخولهـا لمواجهة الإرهاب المزعـوم بغطاء دولي غربـي.. أو فرضًا لواقع جديد لتسـعير الحـرب الطائفية هروبًا من مشهد الثورة العربية على نظم حكم جائرة - خاصة في العراق وسوريا - تسلطت بالحديد والنار والسجون السرية والتمييز الطائفي والاغتصاب والذل لعشر سنوات، بمباركة ودعم إيران وحلفائها الغربيين وصولًا للتقسيم المرسوم مسبقًا.

إذًا تخشـى إيران من وصول المد الثوري العربي السـني إلى مداه حتى لا يتقلص دورها الإقليمي.. إذا نجحت ثورات العرب فيما فشلت الثورة الإيرانية في تحقيقه.

في العراق تحركت ثورة عربية حقيقية من مكونات وقوى الشعب العراقي وتياراته وعشائره لاستعادة العراق من خاطفيه الطائفيين. فالنظام الاستبدادي الطائفي البغيض المـوالـي لإيـران ولأمريـكا يتبع نفس الأسـلوب لحماية نفسـه في مواجهـة الغضب الشـعبي العـارم، فيضخم من داعش ومن نفـوذ الإرهابيين، ويزعم أنـه يخوض حربًا مقدسة ضد الأشرار الهمجيين.

وسرعان ما تم تصوير الفيديوهات وعرضها؛ فيغمض العالم عينه عن خطايا إيران ورجالهـا وكتائبهـا، وعن سـوءات وجرائم نظـام المالكي طوال السـنوات الماضية،

خوفًا من داعش وإرهابها ودمويتها وانشغالًا بها.. وهي نفس الطريقة التي مكنت لبشار الأسد في سوريا.

ثورة سلمية بيضاء في العراق بدأت بالاعتصامات السلمية والمطالبات المشروعة في مواجهة احتلال إيراني غربي بغيض، أذل الإنسان العربي العراقي وأهان كرامته وسلب حقوقه.. وما كان لنظام بهذه الوحشية والطائفية البغيضة ليستجيب لمطالبات ثوار سلميين يرفعون الرايات البيضاء ويطالبون بحقوقهم، وما كان لإيران والولايات المتحدة أن تتمكن من مواجهة الغضب الشعبي العراقي إلا بصناعة فزاعة جديدة تخفي نقاء الاحتجاجات ومشروعية المطالبات بدموية ووحشية التفجير والذبح والقتل ومشاهد الرعب والفزع.

تقرير نشره موقع ديبكا القريب من الاستخبارات الإسرائيلية يؤكد أن:

التعاون العسكري بين أمريكا وإيران في العراق، تزامن مع حرب إسرائيل حليفة واشنطن ضد حماس حليفة طهران - بحسب توصيف الموقع -.

وأفاد التقرير أن الولايات المتحدة وإيران اتخذتا الخطوات الأولى للتعاون العسكري في العراق في ١٦ يونيو الماضي، في الوقت نفسه الذي أعلنت فيه إسرائيل الحرب على حماس- حليف طهران -!

مفارقة عجيبة بالفعل.. فالعرب هنا بين غافل تمامًا عن حقيقة إيران ودورها الشيطاني في إذلال العرب والمسلمين أمام الإرادة الغربية كنموذج حركة حماس، التي تغمض عينيها عن هذه الحقائق لتحظى باستمرار تدفق الدعم الإيراني الوهمي.. وبين عاجز اليوم عن فعل شيء حيال التغلغل والتغول الإيراني، وكان بمقدورهم احتواء إيران والتحالف معها وقت أن كان ميزان القوى يدعم علاقة تقوم على الندية والاحترام.. لكنهم نظروا تحت أقدامهم ولم يستشرفوا المستقبل، وحرضوا عليها أمريكا مطالبين بقطع «رأس الأفعى» - يقصدون إيران - وبعد التحالف الغربي الإيراني والمكاسب الكبيرة التي حققتها إيران في المنطقة ومضاعفة نفوذها، يحاولون فعل ما كان ينبغي عمله قبل سنوات؛ أي قبل أن تمتلك إيران هذه القوة

وهذا النفوذ الذي تستغنى به عن تحالفات عربية بشروط متوازنة، وهكذا عادة العرب عندما يتحركون دائمًا بعد فوات الأوان.

تلعب إيران في المنطقة بذكاء ودهاء شديدين واستشراف للمستقبل وببراجماتية تدرك جيدًا أين طرق ومسالك مصالحها.

وتلاعب إيران العرب والمسلمين بالدعاية الكاذبة والأموال والدعم، وتلعب بالأمر ونقيضه وعلى كل الحبال، فهي تدعم حماس وتتحالف مع أمريكا في نفس الوقت، وتعلن أنها ضد أمريكا وإسرائيل وهي أكبر حليف لهما وخادم لسياستهما.. وأيضًا بداعش وتنظيمات «التتار» الأشرار المتوحشين، الذين تدعمهم وتمولهم وفي نفس الوقت تقاتلهم، ليبقى العرب رهينتها لا يتحررون من أسرها وأسر الغرب إلى الأبد.

وما أسهل زرع داعش وإخافة العالم منها ثم بعد ذلك يتم التخلص منها واكتساب شرعية البديل المخلص المنتصر الذي أراح العالم من الأشرار التكفيريين.. وهكذا تمضي دائمًا الأمور، وبتلك اللعبة الفجة السخيفة تستعبد الأوطان وتضيع الحقوق.

وتضمن إيران بهذا إبقاء نفوذها وحضورها القوي في المنطقة بتكريس الصراعات المذهبية، بما يخلق ويضاعف نفوذ التنظيمات التكفيرية التي تدعم إيران إستراتيجيًّا بزعزعة الداخل العربي وتفكيك جيوشه، وتهديد أمن دول الخليج العربية، التي توجد بها أقليات شيعية تختلف نسبتها من دولة إلى أخرى.

ولذلك تحرص إيران على إظهار البعد الطائفي للصراع القائم في المنطقة حاليًا.. فهي أرسلت – وفق العديد من التقارير– عناصر من الحرس الثوري الإيراني لدعم نوري المالكي رئيس وزراء العراق السابق وأسهمت في تأسيس الميليشيات الجديدة وتدريبها.. كما فتحت مراكز التسجيل للمتطوعين الذين يريدون الذهاب للقتال في العراق، تحت شعار «الدفاع عن المراقد الشيعية في كربلاء، والنجف، وبغداد، وسامراء».

وهذا السلوك الطائفي المعلن في التعامل مع أزمة صنعتها الطائفية الإيرانية في المنطقة، جعل كثير من الشباب يقبلون على الانضمام إلى داعش، وكثير منهم ينتمون

إلـى الـدول الخليجية ومن الطائفة السـنية، تحت شـعارات مناهضة للتوجه الشـيعي وأيضًا للدفاع عن مقدساتهم الدينية في مواجهة الهجمات والمذابح الشيعية.. وسبق هذا توافد كثير من شباب الخليج السنة إلى سوريا تحت نفس العناوين والشعارات.

وهذا أسـهم بشـكل كبير في تنامي قـوة التنظيمـات التكفيرية المتشـددة عدديًّا .. فتقديرات وزارة الداخلية السعودية على سبيل المثال تشير إلى أن نحو ١٢٠٠ سعودي انضموا إلى متشددين إسلاميين في المعارك الدائرة في سوريا، من ضمن نحو ١١ ألف مقاتل أجنبي ينتمون لنحو ٧٠ دولة.

هذا السيناريو يخدم رؤية إيران ومخططات الغرب في جر العرب والمسلمين السنة إلى حرب طائفية مذهبية موسـعة ينشـأ عنها واقع التقسـيم الجديد، ومن وقع في هذا الفخ هم التنظيمات والمليشـيات التكفيرية من السـنة، أما الدول فامتنعت وتداركت أمورها سريعًا، لوعيها التام بأبعاد المخطط الكارثي وعلى رأسها مصر والسعودية.

داعش والأستاذية في صنع الأعداء

أعلنت «داعش» الخلافة وأصدرت بيانًا دعت فيه كل المسلمين والجماعات الإسلامية إلى الانضواء تحت لوائها وإلا كانت آثمة وعاصية.

وكلما تأملت في مسيرة «داعش» قصيرة العمر، رأيت أنها لم تستفد شيئًا من حكمة النبي ﷺ، السياسية، في كيفية تعامله مع خصومه والناس.

فالمتأمل في سياسة «داعش» يجدها تتفنن في صنع الأعداء وحشد الخصوم وتطفيش الأصدقاء.. ففي كل يوم تصنع عدوًّا دون مبرر.. وفي كل أسبوع تحول حليفًا إلى عدو.. فهي تكفّر كل الشيعة وتستحل دماءهم جميعًا دون استثناء، وهي تريد مواجهة شيعة العراق وتريد حرب إيران، وتود لو أنها أزالت حزب الله من الوجود.. وهي تحارب في الوقت نفسه نظام بشار، ناهيك عن كل الميليشيات الأخرى.. وكل هذه قوى لا يُستهان بها.

وهي في الوقت نفسه تريد غزو كردستان العراق وتسعى لتوسيع نفوذها فيها مع علمها بدعم أمريكا وإسرائيل لها.. وهي كذلك تتوعّد مصر حكومةً وشعبًا بالويل والثبور وعظائم الأمور.. ناسية أن مصر هي أقوى دولة مستقرة الآن في المنطقة.. وهي كذلك في حالة تلاسن وصراع إيديولوجي مع «القاعدة» الأم التي يقودها د. أيمن الظواهري.. إذ إنها تزايد عليه وتبالغ أكثر منه في التكفير، حتى بلغت حد «السوبر تكفير».. إذ إنها تكفّر كل من تكفرهم «القاعدة» وتزيد عليها بأنها تكفّر كل الأحزاب ذات المرجعية الإسلامية، مثل حزب النهضة في تونس، والحرية والعدالة والنور والبناء والتنمية في مصر.. إذ إنها تكفر كل من يرى الديمقراطية والحزبية

سبيلًا للعمل السياسي.. وهي تطلب من زعيم «القاعدة» (د. الظواهري)، أن يتوب عن دعمه للإخوان.

وقد ذبحت من قبل رسولًا من جبهة النصرة جاء للصلح بينهما.. أي أن علاقتهما حتى بفروع «القاعدة» في المنطقة علاقة سيئة مع أنهم حلفاء في الأصل.. ولكن «داعش» حاصلة على الأستاذية دون منافس في صنع الأعداء وتطفيش الحلفاء.

الغريب أن «داعش» لم تكتفِ بذلك الحمق كله، فإذا بها ترسل رسالة إلى «أردوغان» بعد فوزه برئاسة تركيا: «أيها العلماني سنحتل بلادك ونخرجك منها».. ناسية أن «تركيا أردوغان» هي البوابة الرئيسية التي تدفق من خلالها عشرات الآلاف من الشباب الذين تكوّنت منهم «داعش» و«جبهة النصرة» في سوريا ثم انتقلوا بعد ذلك إلى العراق.. فهي تنظيمات متعددة الجنسيات «multinational»، وأن تركيا لو أغلقت حدودها خلال السنوات الماضية ما كانت هناك لا «داعش» ولا «جبهة النصرة».. ولكن «داعش» لا تعرف صديقًا ولا حبيبًا ولا حليفًا.. فالكل لديها كفار يستحقون الموت والقتل واحتلال بلادهم وأرضهم.. والمصيبة أنها تهدد بأشياء أكبر من قدراتها بكثير.

ثم تنتقل «داعش» إلى عداوة أكبر، فإذا بها تذبح صحفيين أمريكيين وتفخر بذلك أيما فخر، وتصور وقائع الذبح وتبثها في العالم كله وكأنها تقول لأمريكا: «لن أدع لك أي خيار للسلام معي».. فهي تضع خيارًا واحدًا أمام أمريكا، حكومة وشعبًا، وهو إفناء «داعش» وإنهاء وجودها.. بعد أن كانت أمريكا سببًا من أسباب وجودها بالتحالف مع تركيا وإسرائيل وبعض دول الخليج.

أحيانًا أتعجب لنزق «داعش» وإسراعها في إغاظة أمريكا وجرها للحرب معها، وكأنها لم تقرأ شيئًا من التاريخ الحديث.. فنسيت دروس «هيروشيما ونجازاكي».. وكيف أن أمريكا لم يهمها أي شيء في العالم كله وردّت على قصف اليابان لميناء بيرل هاربر الأمريكي بأشنع جريمة في العصر الحديث.. وكيف أنها ردت على أحداث ١١ سبتمبر باحتلال أفغانستان وقتل وجرح قرابة ثلث مليون أفغاني تركتهم «القاعدة» يواجهون مصيرهم، وفرت هي وقادتها إلى باكستان، حتى اكتشفت

أماكنهم المخابرات الباكستانية والطائرات الأمريكية.. المهم أن الشعب الأفغاني المسكين هو الذي دفع ثمن حماقة «القاعدة» في «١١ سبتمبر».. وأعتقد أن العراقيين البسطاء في مناطق السنة التي تقيم بها «داعش» هم الذين سيدفعون ثمن حماقاتها بعد أن يهرب معظم زعمائها ها هنا وهناك.

وتستكمل «داعش» مسيرتها فتُخير مسيحيي الموصل التي تسيطر عليها بين الإسلام أو الجزية أو القتل، فيهرب معظم المسيحيين الكاثوليك في الوديان والجبال وتحتل «داعش» ديرهم الأساسي، فتتلقاهم فرنسا الكاثوليكية وهي تتمزق غيظًا من «داعش» وتتوعدها حتى إذا جاء هتاف أمريكا بالتحالف ضدها فإذا هي في مقدمته.

وتستكمل «داعش» هوايتها فتهدد «بوتين» بالقتل.. ثم تهدد داعشية بريطانية «كاميرون» رئيس وزراء بريطانيا بالذبح.. وهكذا تتوالى رسائل «داعش» النارية إلى كل مكان.

فهل هناك دولة أو جماعة لديها ذرة من عقل في العالم تفعل ذلك؟ وأي خليفة ذلك الذي لا تستطيع دولته صنع جنزير دبابة أو كاوتش طائرة مقاتلة أو إصلاح رادار تعطل، يهدد ويتوعد العالم كله بأسلوب كله كبر وصلف وإسفاف وابتذال مثل رسالة «إلى أوباما كلب الروم»؟

ألم يقرأ هؤلاء أن رسول الله ﷺ، لم يحارب على جبهتين طوال حياته.. حتى أنه عندما نوى أن يحارب خيبر تصالح مع قريش ليؤمّن جبهتها.. وأنه عقد معاهدة دفاع مشترك مع بني قريظة ليؤمّن ظهره قبل قدوم الأحزاب.

ألم يقرءوا أن رسول الله ﷺ، استقبل في عام واحد ٤٦ وفدًا دبلوماسيًّا من كل القبائل المجاورة لدولة المدينة حتى سماه كتّاب السيرة «عام الوفود».. وأنا أحب أن أسميه «عام الدبلوماسية النشطة».

أما «داعش» فلا علاقة لها بأي دولة.. ولا تعترف بها أي دولة.. إنها تكرر مأساة دولة طالبان التي لم تعترف بها سوى ثلاث دول هي السعودية والإمارات وباكستان.. وكلهم قطعوا علاقتهم بها بعد ١١ سبتمبر.

إن «داعـش» تفكـر بنفـس طريقـة الأب الروحـي لهـا «القاعـدة» التـي حاربـت أمريـكا في ١١ سـبتمبر، وبريطانيا فـي تفجيرات مترو لندن، وإسـبانيا فـي تفجيرات مترو مدريد، ومصر في تفجير السـفارة المصرية في باكسـتان، والسـعودية بعشـرات التفجيرات، والأردن بتفجيرات عمان، وروسـيا في الشيشـان وداغسـتان، والمغرب بتفجيـرات الرياض والدار البيضاء، وأسـتراليا وإندونيسـيا بتفجيرات بالي، وفرنسـا بتفجيـر المدمـرة «كـول».. أي أنها حاربـت الدنيا كلها.. وهي أعجـز وأضعف وأقل شأنًا من حرب هؤلاء جميعًا.. ولذلك لـم تنجح «القاعدة» في إقامة دولة.. ولن تنجح «داعـش»، ولا أي تنظيـم تكفيـري في بناء دولـة، ولكنه قادر فقط علـى هدم الدول.. إنهـا الحكمة التـي خلصت بها من حياة طويلـة مملوءة بالتجارب العملية والدراسـة المتأنية.. إن «داعش» لـم تتعلم شيئًا من حكمة «معاوية» الذي كان يحافظ على شعرة العلاقة بينه وبين الناس.. فإن شدوها أرخاها وإن أرخوها شدها.

تفجير المساجد.. بين داعش وميليشيات الشيعة!

قامت ميليشيا «عصائب أهل الحق» الشيعية بمجزرة يندى لها جبين الإنسانية بتفجيرها مسجد «مصعب بن عمير» في ديالي بوسط العراق.. فقتلت ٧٠ مصليًا وجرحت المئات من السنة.. وأظهرت اللقطات التي بثت للحادث مدى الرعب والهلع الذي أصاب المصلين الآمنين.. مع المشاهد المؤلمة للجثث والأشلاء التي تناثرت في كل مكان.. والدماء التي غطت كل شيء.. فضلًا عن تحطم المسجد تمامًا وسقوط مئذنته على الأرض بعد أن كانت عالية في السماء تهتف دومًا بشعارها العظيم «الله أكبر».. وهي لا تكاد تصدق أن الذين فجروها ودمروها من أبناء وطننا ويتحدثون بلغتنا ويتوجهون لقبلتنا.. لقد سقطت المئذنة مع القتلى والجرحى تشكو إلى الله ظلم وبغي الميليشيات الشيعية ومنها «عصائب أهل الحق» التي فجرت المسجد ويتزعمها الخزعلي، فضلًا عن ميليشيات أخرى مشابهة مثل ميليشيا «بدر» التي يتزعمها وزير النقل السابق هادي العامري.. فضلًا عن ميليشيا «جيش المهدي».. وكلها عاثت في الأرض فسادًا وقتلت الآلاف من السنة دون وجه حق بعد زوال حكم صدام حسين.

لقد بدأت هذه الميليشيات عمليات انتقام بشعة ومنظمة لأهل السنة في العراق وابتدعت ما يسمى القتل بالمذهب في سابقة لم يعرفها الإسلام من قبل.. وهي أشبه بحالات التطهير العرقي في البوسنة والهرسك وغيرها.. ولكنه «تطهير مذهبي».. ليس بإقصاء المخالف لها في المذهب فحسب.. ولكن بقتله وذبحه وتفجيره وتهجيره.. كما سنت هذه الميليشيات سنة بغيضة جدًّا هي تفجير مساجد السنة في العراق.

ثم جاء تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين ليزيد الطين بلة فيفجر مراقد ومساجد الشيعة.. ثم تطور الأمر بينهما إلى أسوأ حال في تاريخ البشرية والإسلام وهو تفجير المساجد في وقت اكتظاظها بالمصلين.. فقامت ميليشيات الشيعة بتفجير الكثير من مساجد السنة في أثناء صلاة الجمعة.. وقامت القاعدة بتفجير مراقد ومساجد الشيعة في أثناء احتفالاتهم بذكرى أئمة الشيعة.

والغريب أن هؤلاء وهؤلاء نسوا أو تناسوا أن العرب في الجاهلية قبل الإسلام كان لديهم من الأخلاق والقيم والمثل العربية ما كان يمنع العربي من أن يمس غريمه الذي قتل أباه مادام قد دخل الكعبة.. فقد كان يراه أمامه ويستطيع قتله فلا يفعل تعظيمًا للكعبة المشرفة.. وكان العربي يلقى قاتل أبيه في الأشهر الحرم فلا يقتله.

ولكن هذه الميليشيات تفجر المساجد وتقتل الآمنين وتروعهم وتفزعهم وتحولهم إلى أشلاء وجثث دون ذنب اقترفوه أو جرم ارتكبوه.. إن هذه الميليشيات التي تربت على سفك الدماء لا تعرف دينًا ولا خلقًا ولا حتى شيئًا من قيم العروبة والرجولة.

إن القتل بالمذهب هو أخس أنواع القتل وأحقرها.. فما ذنب الإنسان المسالم أن يكون على مذهب كذا أو كذا.. ألم يقل القرآن عن أهل الأديان الأخرى ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾.. ألم يقل عنهم ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾.. ألم يقل ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾.

وهؤلاء لا يكرهون الناس حتى يصبحوا شيعة أو سنة أو أتباعًا لهم.. ولكنهم يقتلونهم ويدمرونهم ويفجرون مساجدهم ومراقدهم دون رحمة أو شفقة.

ويلحق بهذه السوأة أيضًا قتل العلماء والدعاة في المساجد لخلاف سياسي أو فقهي أو مذهبي معهم.. وإذا كانت العراق قد شهدت الموجة الأولى في تفجير المساجد بين السنة والشيعة فقد قلدتها باكستان.. فالمجموعات المسلحة الشيعية والتكفيرية وأنصار القاعدة يفجر كل منهم مساجد الآخر ليقتل الأبرياء الذين جاءوا للصلاة بقلب خاشع ونفس صافية لا تعرف أحقاد هؤلاء أو هؤلاء.

وإني أسأل نفسي وأتساءل مناشدًا المسلمين جميعًا:

هـل رأيتم حمقًا وشـططًا وجنونًا أكثـر من ذلك؟!!.. هـؤلاء لا يفقهون في الدين أو الحياة أو الإنسانية شيئًا.. ولا يدركون أن أي مسجد في الدنيا له حظ من قوله تعالى عن المسـجد الحـرام ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾.. والآية أمر فـي صورة الخبر كما قال المفسرون معناها: «أمنوا من دخل المسجد الحرام»، ويلحق به في المعنى «أمنوا كل من دخل أي مسـجد»، ويلحق به أيضًا «أن كل من دخل دار عبادته فهو آمن حتى وإن لم يكن مسلمًا».. فقد احترم الإسلام دور العبادة كلها من الكنائس أو المعابد.. ونهى عـن الاعتداء عليها كما نهى الرسـول ﷺ وخلفاؤه الراشـدون عن «قتـل الراهب في صومعتـه» لأنه يختلي فيها بالعبادة.. وليس من أهـل القتال والمقاتلة.. ولذا فهو آمن ولا يقصد بسـوء.. ولكن هذه المعاني النبيلة غابت عن مثل هذه الميليشيات وكذلك المجموعات التكفيرية مثل داعش ومثيلاتها.

هل سمعت عاقلًا كان يتصور أن تقدم جماعة مثل داعش على تفجير مسجد وقبر نبـي الله يونـس.. ذلك النبـي العظيم الذي حكى القـرآن قصته وأسـماه «ذا النون».. والـذي ابتلعه الحوت بعد أن لامته السـماء على تركه للرسـالة ودعوة قومه يأسًـا من صلاحهم وإصلاحهم دون أن يستأذن ربه.

هل تصور أحد يومًا من الأيام أن تقوم داعش بتفجير مسـجد وقبر نبي الله شـيث التاريخي، الابن الثالث لسيدنا آدم وهو نبي عظيم تحدثت عنه كتب السيرة.

أي قسوة تلك التي طالت الأموات والأحياء سويا؟!!

والغريب في الأمر أن الداعشي الذي فجر هذا المسجد وقف في الفيديو المصور فخورًا سـعيدًا منتشـيًا على أطلال المسـجد.. وكأنه حرر القدس أو ردع إسرائيل عن غزة أو أذل نتنياهو وعصابته.. أي فخر يا فتى وأنت كارثة على الإسلام والمسلمين؟!

لقد ابتدعت الميليشيات الشيعية ما يسمى القتل بالاسم.. حيث لـم يعرف الإسلام ولا الإنسـانية طـوال تاريخهمـا القتل بالاسـم.. أو أن يكون اسـم الإنسـان سـببًا في

قتلـه وذبحـه وترحيله من عالـم الدنيا إلى عالم الآخرة.. فإذا بها تقتل كل من يتسـمى باسـم «أبو بكر أو عمر أو عثمان» وحتى النسـاء لم يسـلمن من ذلك فأي امرأة اسمها «عائشـة أو حفصة» كانت تلقى مصيرًا أسـود على أيدي هذه الميليشيات.. وكأن اسم الإنسان سبة.. وكأن تسميته باسم وزيري النبي ﷺ العظيمين الكريمين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما سـوءة وعار.. وهل الإنسـان يملك اسـمه حتى يعاقبـة البعض عليه ويعاقبونه؟! بماذا؟ بالقتل والذبح أو السجن.. ما هذا يا قوم؟!

لقـد أحدثت هذه الميليشـيات الشـيعية والتكفيرية خرقًا عظيمًا في الإسـلام وفي جـدار الإنسـانية، بـل وفي بنيان الرحمة الإنسـانية التـي ينبغي أن تكـون في قلب كل إنسان، فضلًا عن أن يكون مسلمًا سواء شيعيًّا أو سنيًّا.

حـارب المسـلمون أعداءهم طـوال قرون طويلـة.. ولكن لم يصـدر عن أحد من علمـاء المسـلمين قديمًـا أو حديثًـا فتـوى تبيح قتـل كل من ينتمـي لجنسـية أو ديانة أو عرق معين.

فقد قاتلوا الروم، ولم يصدر عن الصحابة أو التابعين فتوى بقتل كل رومي.

وقاتلوا الفرس، ولم تصدر فتوى بقتل كل فارسي.

ولكن القاعدة خرقت في الفقه الإسـلامي خرقًا خطيرًا لم يحدث من قبل، حينما أصـدرت فتـوى بقتل كل أمريكـي.. وكل يهودي.. وهو ما عبرنا عنـه في كتبنا بفتوى القتل بالجنسية.. وهذه فتوى باطلة من أساسها ولا تستند إلى أي دليل شرعي.

فهنـاك أمريكي مسـلم.. وهنـاك أمريكي متعاطـف مع قضايا المسـلمين.. وهناك أمريكي يعارض سياسة بلاده في الشرق الأوسط.

فلا يمكن أن يكون هناك شعب أو أهل ديانة أو عرق على نسق واحد.

وقـد كان القرآن عظيمًا حينما أشـار إلى أهل الكتاب من اليهـود والنصارى بقوله تعالى ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾.. وهي حكمة قرآنية عظيمة نسوقها ونكررها علي مسامع قادة القاعدة والمقتنعين بفكرهم.

وهذه الآية تمثل قمة العدل القرآني مع الخصوم والمخالفين في العقيدة والدين.

كما أن القرآن لم يعمم الأحكام أبدًا مع أهل الكتاب.. ولكن كان يستخدم دائمًا كلمة «من» وهي للتبعيض «ومنهم» مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾.

ولا ينبغي أن يجعلنا الطغيان الأمريكي أو الإسرائيلي في المنطقة أن نحيد عن أحكام الشرع الحنيف.. ولكن علينا الالتزام بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

وليس هذا دفاعًا عن أمريكا أو غيرها.. ولكنه دفاع عن الشريعة.. وسعي للانضباط بقواعدها.. لأن الله تعهدنا بالتزام الشريعة والدوران حولها حيث دارت، وإن خالفت أهواءنا وأفكارنا.

داعش.. تخدم الإستراتيجية الغربية والأمريكية!

تزعـم داعش أنها تقيـم دولة الخلافة ـ بما تحمله من مفاهيم الوحدة والتماسـك والقـوة ـ لكن الواقع والتاريـخ والتنبؤات والمخططات والشـواهد كلها، تصب في كونها مجرد لاعب وورقة في سـيناريو تقسيم المنطقة إلى دويلات متناحرة.. استنادًا إلى أسـس طائفيـة وعرقية تقضي على فكـرة الدولة القومية التي تأسسـت في مرحلة ما بعد الاسـتعمار، وما حدث في العراق حيث سـيطرت داعش على بعض المناطق، يعيد الحديث عن احتمال السيناريو الأسوأ لتفكك المنطقة العربية.

مـا يحدث على الأرض اليوم في العراق وليبيا والسـودان وسـوريا والمحاولات في مصر، كلها تذكرنا وتجعلنا نستدعي النصوص والكتابات والخرائط التي تحدثت وخططت لهذا الواقع قبل عقود.

ومن أشـهر مـن تحدث عن هذا الواقـع مبكرًا المفكر الفرنسـي روجيه جارودي؛ فقـد تم بالفعـل ما تنبأ به وتحقق مـن الإعداد للجولة المرتقبة على مسـرح العمليات المصـري.. وتمت السـيطرة على القـرن الإفريقي، وتـم اختراق العمق الإسـتراتيجي المصري بالسـيطرة شـبه التامة على جنوب السودان، ونفذ على الأرض الجزء الأكبر من مخطط إضعاف السـودان والعراق وتقسيمهما.. وهناك هيمنة اقتصادية على قطر وتواجد استعماري عسكري في البحر الأحمر والخليج والمحيط الهندي.

هـذا كله لم يكن لمجـرد التهويش.. إنما النية مبيتة والخطـط جاهزة والتنفيذ جار على قدم وسـاق؛ لإضعاف وإسـقاط أكبر وأهـم الدول العربية والإسلامية «مصر» في مستنقع الفرقة والتشرذم والتقسيم.

المؤرخ برنارد لويس وضع في عام ٢٠٠٣م في مجلة «اكسليوتف انتلجنت ريسرش بروجكت» التي تصدرها وزارة الدفاع الأمريكية تصورًا إستراتيجيًّا مدعومًا بالصور والخرائط لتقسيم الشرق الأوسط إلى أكثر من ثلاثين دويلة على أساس طائفي وعرقي، لشل هذه الكيانات بالخلافات والنزاعات الطائفية والمذهبية والصراع على الثروات والمياه والحدود.. وكل ذلك لحماية الكيان الصهيوني وتأمين مستقبله لخمسين سنة قادمة.. ولحماية المصالح الأمريكية.. وذلك في عهد الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر واعتمده الكونجرس في جلسة سرية عام ١٩٩٣م كأساس للسياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط. ويتضمن المخطط تقسيم مصر إلى أربع دويلات: واحدة تحت السيادة القبطية، وأخرى تحت السيادة الإسلامية، وثالثة للنوبة.. ثم دولة تحت السيادة الفلسطينية في سيناء بعد ضمها إلى غزة.

وأعاد طرح هذا المخطط الإستراتيجي الشامل لبرنارد لويس في الثمانينيات الكاتب رالف بيترز عام ٢٠٠٦م في مقال له بعنوان «**حدود الدم**» منشور بمجلة القوات المسلحة الأمريكية.. يقول فيه: «**ربما يكون تعديل الحدود مستحيلًا الآن.. لكن مع الوقت وبحار الدماء المتأهبة التي لا يمكن منعها ستظهر حدود جديدة وطبيعية**».

وتهدف السياسة الخارجية الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط إلى السيطرة على منابع البترول بالمنطقة، والتي تحوي أكثر من ٦٨٪ من الاحتياطي العالمي والحفاظ على بقاء وأمن إسرائيل بالمنطقة.. مع تعظيم دورها وترسيخ هيمنتها على دول المنطقة، وأن تصبح هي الدولة المركزية بين دول الإقليم، وأن تظل مصالح الولايات المتحدة الاقتصادية آمنة بضمان سير الملاحة البحرية العالمية في قناة السويس، وأن تبقى المنطقة سوقًا كبيرًا لتصريف المنتجات الأمريكية، حيث يزيد عدد سكان الدول العربية لأكثر من ٤٠٠ مليون نسمة.. وأن تبقى الصراعات المسلحة مشتعلة لا تهدأ بين دول المنطقة لترويج تجارة بيع السلاح الأمريكي.

ولا شك أن أهم سلاح تستخدمه الولايات المتحدة والغرب لتحقيق هذه الأهداف الإستراتيجية هو سلاح التنظيمات التكفيرية المسلحة، وما يسمى الحرب

على الإرهاب وإشعال الصراعات الطائفية، وهذا من شأنه التقسيم الفعلي للعراق وسوريا إلى كانتونات سنية وشيعية وكردية، وتهديد باقي دول المنطقة بنفس المصير.

وتدعم تحركات ومواقف داعش بقوة هذا المخطط، وقد أصدرت داعش تقريرًا من ثماني صفحات نددت فيه بنظام الحدود في الشرق الأوسط الذي فرضه الاستعمار.. كما وصفتها بالحواجز الصليبية بين العراق وسوريا - بحسب ما جاء بالتقرير -.

وكانت أمريكا قد روجت لفكرة تقسيم العراق إلى ثلاثة أجزاء كحل لمشاكل البلاد في عام ٢٠٠٦، وأعلن ذلك جوزيف بايدن عضو مجلس الشيوخ الأمريكي، مستحضرًا نموذج تفكيك يوغوسلافيا السابقة واتفاقات دايتون في منتصف التسعينيات من القرن الماضي.

ويبدو أن الأحداث والأمور تتجه لفرض واقع التقسيم في العراق في نهاية المطاف إن عاجلًا أو آجلًا، بتقسيمها إلى ثلاثة أو أربعة دويلات على أساس عرقي ومذهبي. والمتابعون للأحداث والمحللون العرب والأجانب في غاية التشاؤم فيما يتعلق بمستقبل المنطقة في ظل هذه التطورات، ويقررون أنه من المستبعد أن تصمد الحدود العربية الحالية وتستمر، وسوف تئول القوة الكبرى - أو الشرق الأوسط الكبير - إلى مقاطعات، وهي العملية التي كانت جارية بالفعل منذ الانتفاضات العربية، وما لم تنله وتقدر على فعله الولايات المتحدة والغرب باستخدام الحركات الشبابية المطالبة بالديمقراطية والحريات، تقدر عليه وتناله باستخدام وتوظيف المليشيات الإسلامية التكفيرية المتشددة وعلى رأسها داعش.

وتبدو الأهداف والإستراتيجيات واحدة بحيث تنظر وتتعامل الولايات المتحدة مع تلك التنظيمات كأداة ووسيلة لتنفيذ مخططاتها في المنطقة وأهدافها سالفة الذكر.

وفي نفس الوقت تتعامل داعش مع أمريكا بنفس الرؤية.. أي أنها ترى في استفزاز الولايات المتحدة واستجلابها للقتال على أساس ديني؛ وسيلة لهدم الدول والأنظمة القائمة وتفكيك جيوشها.. ومن ثم تفرض سيطرتها على مناطق جغرافية بعينها وتنطلق منها للتوسع وفرض سيطرتها على المزيد، عبر تطبيق بعض الجزئيات من القانون العقابي الإسلامي، وفقًا لتفسيراتها المتشددة للشريعة الإسلامية.

وهذا السلوك الداعشي والقاعدي يؤثر بصورة مباشرة على بنية الدولة الوطنية ويطمس حدودها وكياناتها المتعارف عليها ويخلق واقعًا جديدًا على الأرض.

وبقياس موازين القوى، فإن مجمل ما ستحوزه في النهاية بعض المناطق الجغرافية المحدودة، فيمَ تنال باقي القوى والطوائف الأجزاء الأخرى، عندما تضع الحرب أوزارها وينتهي الصراع المسلح إلى ما تم التخطيط له مسبقًا من تقسيم وتجزئة على أسس مذهبية .

هذا السيناريو مؤهل ومرشح للتكرار في أكثر من دولة. فنجاح داعش في العراق سيغري بلا شك التنظيمات التكفيرية لاستنساخ التجربة ومحاولة إنجاحها في الأماكن والدول المتواجدين فيها.. خاصة تلك الدول التي تشهد اضطرابات سياسية واحتقانات وتوترات مذهبية وطائفية.

وبالفعل سرعان ما تحركت جماعة «بوكو حرام» التي تتبنى فكر القاعدة في نيجيريا وأعلنت دولة الخلافة الإسلامية هناك، وجعلت تتجه بصورة أعنف من ذي قبل للتوسع والقتل والسيطرة على أكبر قدر من المساحات الجغرافية بنيجيريا.. وكذلك اليمن من الدول المرشحة بقوة لاستنساخ التجربة من قبل تنظيم القاعدة، الذي يتمتع بوضع متميز وقوي جدًّا في البلاد؛ وذلك بسبب ضعف قدرة الدولة على بسط نفوذها الأمني والسياسي على المناطق الحدودية.. وسيطرة الميليشيات القاعدية على كثير من المناطق المهمة التي تشهد فراغًا أمنيًّا وسياسيًّا.. وهذا الأمر يمثل تهديدًا مباشرًا للمملكة العربية السعودية التي استشعرت الخطر وتحركت في كل الاتجاهات لمواجهته فكريًّا وسياسيًّا وقانونيًّا وتشريعيًّا، ولن تقف المملكة السعودية مكتوفة الأيدي عسكريًّا إذا وصلت الأمور لمرحلة تهديد الأمن القومي السعودي بحكم الجوار الجغرافي والحدود المشتركة بين اليمن والسعودية.

لماذا تمددت داعش سريعًا؟

السر الأساسي في قوة وتمدد نفوذ داعش وسيطرتها على مناطق واسعة يعود إلى الأسباب الآتية:

١- قيام الثورة السورية وتدفق آلاف المقاتلين الأجانب إلى سوريا ثم دخولهم العراق. ومع تدفق هذه الآلاف انضم الكثير منهم إلى جبهة العراق مع سوريا.. أو بالتبادل بينهما.. وخاصة بعد توحد الفصيلين.

٢- الاتحاد بين «دولة العراق الإسلامية» و«جبهة النصرة» في سوريا، وانفتاح الحدود بين البلدين، وتدفق السلاح والعتاد والأموال من الجبهة السورية الغنية بكل شيء إلى جبهة العراق.

٣- الدعم الإقليمي العربي والغربي للثورة السورية وللمقاتلين في الجماعات التي ناهضت بشار، صب بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عند داعش، وخاصة بعد توحد الفصيلين وانفتاح الحدود بينهما.

٤- اعتبرت كل هذه الفصائل أن عدوها في سوريا والعراق هو عدو واحد وهو الشيعة.. وأن جيش العراق وسوريا هو جيش طائفي.. وهم يعتبرون الشيعة جميعًا كفارا بلا استثناء، ويعتبرون قتالهم أولى من قتال الجيش الإسرائيلي أو على الأقل مقدمة ضرورية له.

٥- الإقصاء الشديد للسنة الذي مارسه المالكي وحكومته.. وحكمه للعراق فترتين بطريقة طائفية إقصائية محضة؛ جعلت كل القبائل السنية في مناطق السنة ترفض مقاومة داعش، وتتمنى من داخلها أن تقع الحرب بين داعش والمالكي وزمرته فتتخلص العراق من الطرفين المتطرفين.

٦- يأس الكتائب السنية وقادتها في الجيش العراقي من المالكي وحكومته، وشعورهم بأن الجيش العراقي هو جيش طائفي لا يمثلهم، مما جعل كل الضباط والجنود السنة يتركون أسلحتهم لداعش.. إن لم ينضم بعضهم إليها.. ليس حبًّا في داعش، ولكن نكاية في ظلم المالكي وطائفيته البغيضة.

داعش.. تسليحًا وتدريبًا وخصومًا

وداعـش تقتـل المدنيين. وقديمًا اعترض بعض أسـاتذة الزرقـاوي عليه لإصراره على قتل المدنيين وخاصة النسـاء، مع أن حرمة قتل المدنيين من غير المسـلمين في الحروب مما لم يختلف عليه أحد من الفقهاء قديمًا أو حديثًا وعليه إجماع.. والغريب أن الزرقاوي ذبح الرهينة المدني الأمريكي بنفسه مفتخرًا بذلك..

والغريـب أن داعش تقتل الأسـرى حتى من المسـلمين السـنة أو الشـيعة.. وهي التـي قتلت أحد زعماء جبهة النصرة بعد خـلاف بينهما، فذبحته ذبح النعاج وصورته ونشرت هذه الصورة البغيضة على النت.

وأنـا دائمًـا أسـتغرب مـن أيـن جـاءت داعـش والقاعـدة بفكـرة قتل الأسـرى.. فالرسـول ﷺ عفا عن كل أسـرى غزوة بدر من المشـركين.. رغم أن مشـركي قريش عذبوهم واضطهدوهم وأخرجوهم من بيوتهم قبل ذلك.. واكتفى بأن يعلم كل أسـير عشرة من المسلمين القراءة والكتابة.

التسليح والتدريب والكفاءة العسكرية لداعش

تعتبـر داعـش أقـوى تنظيمـات القاعدة تسـليحًا وتدريبًـا وكفاءة عسـكرية.. فقد تلقى أعضاء التنظيم تدريبات راقية على أعلى مسـتوى، وخاصة بعد الانفتاح الغربي والعربي والعالمي على دعم الثورة السـورية لإزاحة بشار، وكل ذلك صب في النهاية لمصلحة داعش.. وخاصة مع تدفق الأسلحة والعتاد الحديث إلى هذه الجبهة ثلاث سنوات كاملة.

ولذا تمتلك داعش أسلحة متطورة حصلت عليها من الجيشين السوري والعراقي ومنها دبابات وصواريخ.. فضلًا عن انضمام ضباط قوميين وبعثيين سنة من الجيشين العراقي والسوري للتنظيم، مما زاد هذه القوات خبرة وحنكة عسكرية.

خصوم داعش

يمكنك فهم خصوم داعش إذا فهمت القصة كلها، فهم أعداء للشيعة وحاكمي العراق وسوريا، وكذلك كل من ينافسهم النفوذ على مناطقهم.. وبالتالي الخصوم كثيرون وأهمهم :

الجيش العراقي.. المالكي وأتباعه.. كل الميشيليات الشيعية العراقية.. قوات البشمركة (ولكنها لا تريد التدخل حتى لا يصب ذلك لمصلحة المالكي).. الجيش السوري.. حزب الله اللبناني.. الحرس الثوري الإيراني.. حزب العمال الكردستاني (ولكنه لا يدخل معها في معارك حاسمة إلا إذا حاولت السيطرة على أراضيه).. الجيش الحر السوري (لأن داعش تكفره وتريد أن تستولي على سوريا بدلًا منه).

داعش.. وإخماد الثورات العربية

عندما استيقظ العالم كله في صبيحة الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م على ضربة هائلة غير مسبوقة في العمق الأمريكي، اندهشنا يومها وتساءلنا كما تساءل المراقبون والمحللون:

كيف غفلت أقوى مؤسسات وأجهزة الاستخبارات في العالم عن هذا التخطيط والتدبير والإعداد وما يلزم ذلك كله من اتصالات وفاكسات؟!.. فمن الطبيعي أن تكون مراقبة ومرصودة من (الـCIA و الـFBI)!

تساءلنا يومها:

من هؤلاء البشر شديدو القسوة، الذين يحرقون المدنيين الأبرياء، ويفتكون بهم بهذه الوحشية ويزهقون آلاف الأنفس، ويخلطون الدم واللحم البشرى، المسلم وغير المسلم، الرجل والمرأة والطفل، السود والبيض، العدو والصديق المدان والبريء، بحطام الطائرات والزجاج والمباني والتراب الكثيف بلا رحمة ولا شفقة، في مشهد مأساوي فوضوي لا يُمحى من الذاكرة الإنسانية على مر الأيام!!

قبل أن يتمكن العالم كله من استيعاب الحدث الكبير وتداعياته والآثار المترتبة عليه، التي تناسب حجمه وضراوته والوقوف على أهدافه ومعرفة المستفيدين الحقيقيين منه.. وقبل أن يتم الناس أسئلتهم، وقبل أن يصل خيالهم إلى أجوبة منطقية، وقبل أن تستوعب العقول هذه الصدمة المروعة.. عمدت الولايات المتحدة الأمريكية إلى الطرق على الحديد وهو ساخن، بتوجيهها الاتهام إلى أسامة بن لادن باعتباره المشتبه به الرئيسي.. ثم إلى حركة طالبان قبل إجراء أي تحقيقات.. وصدر

الحكم الرئاسي على لسان جورج بوش الابن ولا تزال طائرته محلقة في الجو تتفقد حطام المباني ومخلفات وآثار التفجيرات المروعة!

سواء اتفقنا أو اختلفنا حول من قام بالفعل بأحداث الحادي عشر من سبتمبر.. وهل قام حقًّا أسامة بن لادن بتمويل ودعم المجموعة الجهادية التي خططت للعملية ونفذتها في غفلة تامة لأجهزة الاستخبارات والاستشعار عن بعد الأمريكية.. أو كان ذلك مؤامرة صهيونية أمريكية كبرى غير مستبعدة – مع تحفظنا على السير دون تبصر ونقد للذات وراء متاهات نظرية المؤامرة –.

وسواء آمنا بأن الفاعل والمحرك والمخطط والمنفذ لهذه الأحداث، هي تلك المجموعة الجهادية التي يتزعهما ويدعمها ذلك الشاب السعودي الثري، أو أن ذلك العمل لا يمت بصلة إلى الجهاديين الإسلاميين.. وإنما يرتبط بخطط وتكتيكات الخداع الإستراتيجي الأمريكي وتحركه العقلية البراجماتية الأمريكية التي تدوس على كل القيم والمبادئ والأعراف والقوانين والمقدسات في سبيل المنفعة المادية.

سواء هذا أو ذاك، فإن المحصلة النهائية بعد سنوات عشر من بداية التحالف والدعم والتعاون بين أسامة بن لادن والولايات المتحدة لقتال الروس في أفغانستان.. ثم الانقلاب والعداء لأمريكا.. ثم الفعل العنيف المدمر الشرس وردود الأفعال الأكثر عنفا وشراسة وتدميرًا من قبل الولايات المتحدة والأهداف السياسية والاقتصادية التي حققتها من وراء ذلك.. ثم تصاعد وتيرة الصراع لسنوات وصولًا لسقوط اليمين الأمريكي المتطرف سياسيًّا، وصعود أوباما الذي بدأ في تصحيح الأوضاع وتهدئة اللغة والانسحاب تكتيكيًّا من أرض المعارك مع إبقاء الوضع تحت السيطرة بتحالفات إقليمية ودولية وحكومات موالية لأمريكا.. مرورًا بالجيل الثالث والحالي من الجهاديين والتكفيريين، إلى إطلاق داعش وما سمي بدولة الخلافة.. نجد ونكتشف أن هذه السلسلة المتصلة والمتعاقبة من الأحداث قد صبت كلها في صالح الولايات المتحدة الأمريكية.

كان يجب على داعش أن تتعلم من تجربة القاعدة ودروس صراعها مع الولايات المتحدة، وأجهزة الاستخبارات الأمريكية والغربية والإيرانية المحترفة.

هو سيناريو شبيه من التحالف والدعم من الولايات المتحدة لداعش لأهداف أمريكية محددة في المنطقة.. ثم انقلاب عليها ومحاولات لخوض معركة شبه وجودية معها.

وإذا كانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر قد أزهقت أرواح رعايا أبرياء تؤويهم الولايات المتحدة مسلمين وغير مسلمين، شعر بعدها تنظيم القاعدة أنه وجه ضربة قاسية لأمريكا في عقر دارها.. فإن الحرب التي شنتها الولايات المتحدة على أفغانستان قد أزهقت ودمرت دولة بكاملها بذريعة أنها تؤوي رعايا مشتبه بهم.

ولا يسأل أحد عن العقلانية والمنطقية في ردود الأفعال الأمريكية.. سواء فيما يتعلق بالأحداث في أفغانستان أو العراق على مدى سنوات من الحروب الضارية، التي لم تشهد البشرية في دناءتها ووضاعتها ووحشيتها في العصر الحديث.

فضلًا عن حجم الخسائر البشرية الهائلة التي قدرت بالملايين من القتلى والجرحى والمشردين والمفقودين.. وكذلك الدمار الشامل في البُنى التحتية وهدم المستشفيات والمساجد والمدارس، واستهداف الأطفال واغتيال العلماء وتدمير التراث والمتاحف والمكتبات، وإعدام كل ما يتعلق بالثقافة والحضارة الإسلامية.. ولا نغفل انتهاك الحقوق وإذلال الأسرى وانتهاك الأعراض والاعتداء على المقدسات وسلب ونهب الثروات.

والمنتظر بعد انقلاب داعش على الحليف الأمريكي، تسويغ تدخل أشرس وأعنف بعد استفزاز العملاق الأمريكي بالدعايات التوسعية الإمبراطورية تحت عناوين: (الخلافة وذبح الرهائن والمدنيين الأمريكيين وإذلال كرامة أمريكا أمام العالم كله وتهديد المصالح الأمريكية في المنطقة)، وذلك لتهاجم أمريكا المنطقة من جديد بمباركات دولية لإحكام السيطرة على المنطقة والتمكن من إضعافها وتجزئتها وتفكيكها.

نتذكر الغايات والأهداف الإستراتيجية التي حققتها الولايات المتحدة بعد الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م.. فكيف لم تفطن داعش إليها والتعلم منها وهي تسير على درب القاعدة في العداء الواضح لأمريكا.. بل تتعدى ما وصلت إليه

القاعدة بمراحل بإعلانها الدولة الإسلامية ومحاولاتها السيطرة على العراق وتصدير عملياتها إلى دول المنطقة؟!

دمرت أمريكا دولة إسلامية وليدة في أفغانستان تقودها حركة طالبان الإسلامية.. فكيف تتعجل داعش وتعلن هكذا دولة بدون مقدمات أو دراسة منطقية وعقلانية للمآلات والنتائج؟!

وهي ليست فقط مجرد إمارة إسلامية داخل أفغانستان وحدها كالنموذج الطالباني المصغر السابق، إنما دولة خلافة إسلامية بكل ما يعنيه المصطلح من أبعاد توسعية إمبراطورية على أساس ديني عقائدي، تستفز حتمًا وتستدعي التحرك الغربي العسكري.

ومن ثم ترسيخ التفرد الأمريكي في قيادة العالم دون منازع ودون منافسة ودون معارضة من قوى أخرى إقليمية أو دولية.

وما إن تنفس العالم الصعداء، وتراجعت خطوة إلى الوراء نزعة القطب الواحد، ظهر في المشهد لاعبون جدد.

فهل تسعى داعش بهذه الاستفزازات إلى عودة الولايات المتحدة إلى سابق عهدها كما كانت في عهد ريجان وجورج بوش الابن.. وأن يعود العالم في حضن القطب الأحادي بلا منازع؟

لقد استطاعت أمريكا بعد الحادي عشر من سبتمبر أن تنهي النفوذ الإسلامي المتصاعد في أفغانستان وباكستان، وقضت على الأنظمة المتمردة على الإرادة الأمريكية في أفغانستان والعراق.. فإذا ما ظهرت اليوم بوادر تمرد وغضبة شعبية على النظام الطائفي البغيض الموالي لأمريكا، وعلى أوضاع البلاد المتدهورة في ظل الحماية والوصاية الأمريكية.. **فهل تسعى داعش باستفزازها أمريكا للعودة بقوة إلى إنهاء هذا التمرد وإخماده.. ليكون القضاء على داعش والحرب على الإرهاب مجرد ستار تختفي وراءه الدوافع الحقيقية للتدخل، وهي إخماد الثورة الشعبية في العراق المطالبة بالحقوق والحريات والقضاء على الفساد ونهب الثروات مع التوزيع العادل للثروة على العراقيين؟**

لقد نجحت الولايات المتحدة بعد الحادي عشر من سبتمبر في إيجاد أنظمة موالية لها في مناطق ودول النفوذ ذات التأثير الكبير في ترجيح موازين القوى لصالح القوة العظمى في العالم اقتصاديًّا وإستراتيجيًّا.. فهل تدعم داعش هذا التوجه بعد أن أدركت أمريكا فشل المالكي في الصمود والمواصلة.. فتعيد الكرة بمساعدة داعش وتغطيتها لإيجاد أنظمة وقيادات بديلة أخرى موالية للأمريكان؟

وقد نجحت الولايات المتحدة بعد الحادي عشر من سبتمبر في الترويج لسيناريو تقسيم العالم الإسلامي، وبث الفوضى في ربوعه وتغذية الصراعات الطائفية وإشعال الفتن بين أبناء الوطن الواحد، من أجل إضعاف وتفتيت الدول العربية والإسلامية القوية ذات الثقل السياسي والعسكري والبشري.. فهل تسعى داعش اليوم لترسيخ هذا الواقع وفرضه؟

وقد نجحت الولايات المتحدة بعد الحادي عشر من سبتمبر في تشويه صورة العالم الإسلامي وإلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام نفسه وخلق الذرائع والمبررات، بهدف مواصلة احتلال بلاد الإسلام ونهب ثرواتها من جهة.. ومن جهة أخرى للحد من انتشار الإسلام الذي يشهد إقبالًا غير مسبوق في دول أوربا، مما يمثل ما يشبه الزلزال للنصرانية في أهم وأقوى معاقلها التاريخية.

فهل تواصل داعش بمواقفها تلك وفيديوهاتها المبثوثة على الإنترنت في دعم هذه الدعايات المحرضة ضد الإسلام والمسلمين، وتقديم الخدمات لأعداء الإسلام بإشاعة الكراهية ضده والنفور منه؟

وكذلك نجحت الولايات المتحدة بعد الحادي عشر من سبتمبر في إلهاء المسلمين عن القضية الأم؛ وهي قضية فلسطين وتحرير الأقصى والقدس من الاحتلال الصهيوني، وإشغال الرأي العام العربي والعالمي بنزاعات وصراعات تصرفهم، ليس فقط عن دعم فلسطين وإنقاذ مقدساتها وإنقاذ المسجد الأقصى المهدد بالهدم بسبب الممارسات والحفريات الإسرائيلية المتواصلة تحته وفي محيطه، بل تصرفهم حتى عن مجرد الاهتمام بالقضية ومتابعتها وإظهار الدعم والتضامن الإسلامي والعربي

بشأنها والانشغال بصراعات وحروب مذهبية وطائفية داخل المحيط الإسلامي، وكذلك تسهم داعش بامتياز في تغذية هذا الهدف وتحقيقه .

بدأ الأمر بمظاهرات غاضبة من العراقيين على حكم المالكي المدعوم أمريكيًّا.. لكن أعاق نجاح هذا التحرك تدخل داعش على الخط.. كما تسبب تدخل الجهاديين والتكفيريين في إفشال أو التقليل من قيمة الهبات الجماهيرية التي انطلقت في سوريا وليبيا ومصر. وكان تحويل الحراك الشعبي السلمي على يد الجهاديين والتكفيريين وبالًا على الشعوب.. حيث كان هذا التحول هو ما تتمناه أمريكا والغرب والأنظمة المالية لها، ليستخدم كفزاعة ومبررًا لإخماد الثورات وكتم مطالب التحرر والإصلاحات.

هكذا تنجح أمريكا باستخدام تنظيم القاعدة وما تفرع من جذورها من تنظيمات وخلايا.. ثم بتنظيم داعش في مواصلة ابتكار خدعها الإستراتيجية وخلق مبررات وذرائع أقوى للحفاظ على تواجدها ونفوذها ولخدمة إستراتيجيتها وأهدافها وغاياتها الكبرى في العالم العربي والإسلامي.

القضية المهمة أيضًا أن حركة التغيير السلمي الشعبي العربي من خلال الثورات العربية، قد بدأت تغير صورة العالم الإسلامي والعربي إلى الأفضل أمام الرأي العام العالمي، بعد أن أنفقت أمريكا جزءًا كبيرًا من ميزانية إعلامها على مدار السنوات السابقة لتشويهه وإلصاق تهمة الإرهاب والفوضى والهمجية ومخاصمة قيم الديمقراطية والحرية به.

ونجحت هذه التحركات والاحتجاجات الشبابية في كسب الرأي العام العالمي، إلى جانب خيارات الشعوب العربية والإسلامية وتطلعاتها للحرية والخلاص من الاستبداد المدعوم أمريكيًّا.. لكن تدخل القاعدة من جهة وداعش من جهة على خط الثورات قد شوش على الصورة النقية وأحبط الأحلام والتطلعات من خلال تحركات سلمية بيضاء بكوابيس القتل والدم، واستدعاء أمريكا لإعادة الشعوب قهرًا تحت سيطرتها تمص من دمها وتنهب ثرواتها.

لـو سـارت الحركـة الإسـلامية مع شـعوبها فـي مسـيرة التطلـع عربيًّا وإسـلاميًّا لإرسـاء قيـم الديمقراطيـة الحقيقية والعدالـة والمسـاواة واسـتقلال الإرادة والتغيير والإصلاحات السياسـية، وما يستدعيه ذلك من السير في طريق التغيير الناعم لسياسة أمريكا والضغط الحقوقي والدولي لإنهاء ممارسات وانتهاكات إسرائيل في المنطقة، ولو انضوت الحركات الإسلامية تحت رايات التغيير السلمي وتلاحمت في صفوف الشـعوب.. لتغيـر الوضع كثيـرًا، ولأصبح للربيع العربي شـكل مختلـف ونجاحات كبـرى، ولغيرت الحركة الإسـلامية الصـورة القديمة المنطبعة فـي أذهان الجميع في الداخل والخارج عنها، ولأوجدت لنفسـها قدمًا راسـخة في المشـهد السياسـي وفي خريطة التأثير فيه في المستقبل.

أمريـكا تريد إسـلاميين وجهاديين وتكفيرييـن يضربون بعنف وضـراوة وهمجية ودموية وغشم، لترد هي بصورة أعنف وأشد قسوة وضراوة في صراع متواصل يصب في صالح إستراتيجيتها في النهاية.

وتريد أيضًا إسلاميين من السهل استفزازهم إلى حمل السلاح.. حيث لا يفكرون إلا في كيفية إنجاح عمليتهم العسكرية هذه أو تلك التي خططوا لتنفيذها في أي مكان من العالم، بصرف النظر عن النتيجة والمآل والمصير.

وكذلـك تريـد إسـلاميين متوزعين فـي مجموعات متنافـرة مطاردين فـي الجبال والكهوف والصحاري، منبوذين ومكروهين وملعونين من شـعوبهم ومن العالم كله، لتكريس نشـاطها الإجرامي الفوضوي، في بلاد إسلامية كثيرة من العالـم تحت ذريعة الحرب على الإرهاب بمعزل عن القانون والشرائع الدولية.

أمـا أن يظهـر علـى السـاحة بقوة إسـلاميون يشـاركون أبنـاء وطنهم فـي ثوراتهم السلمية النظيفة البيضاء، ويشاركون في إنقاذ أوطانهم من الفساد والاستبداد والأنظمة الظالمة الجائرة.

وأن تتوحـد فصائـل التيـار الإسـلامي مع بعضهـا البعـض، وتبدي نضجًـا ووعيًا سياسيًّا وتكون محل ثقة ورضا وقبول من الجماهير العربية.

وأن ينال الإسلاميون إعجاب المراقبين والمحللين بما ضحوا به في سبيل الحفاظ على ثورات شعوبهم وإنجاحها، وأن ينظر العالم إليهم بانبهار واحترام!

فهذا هو المأزق الحقيقي للولايات المتحدة الأمريكية وللغرب بصفة عامة ومعهم إيران.. لأنه يضع الإدارة الأمريكية في حرج أخلاقي بشأن مبررات وجودها ودوافع مواصلتها، لانتهاك القوانين الدولية والتدخل الفج في شئون المنطقة وفرض الوصاية عليها.

في مقال منشور بجريدة «هآرتس الإسرائيلية» يوم ٥ مايو ٢٠١١م، يربط كاتبه بين هدف أمريكا من إهانة جسد أسامة بن لادن بعد اغتياله بباكستان ورميه في المياه.. وبين الهدف من إهانة الرئيس العراقي الراحل صدام حسين بإظهاره مع جندي أمريكي يفحصه بطريقة مهينة.. ثم بإعدامه صبيحة عيد الأضحى المبارك، والمشهور عند المسلمين بيوم النحر، وتسليمه لخصومه من الشيعة لتنفيذ الإعدام به بتلك الطريقة التي استفزت العالم الإسلامي كله وليس المسلمين السنة في العراق فقط.

يقول كاتب المقال:

«أمريكا هي أمريكا.. عرضت صدام حسين يفحص أحدهم أسنانه مثل بهيمة في سوق للحيوانات.. وألقت جثة بن لادن في البحر.. وهذان عملان سافلان منفران لا داعي لهما.. وأمريكا هي أمريكا.. غموض في التفاصيل: أكان مسلحًا؟ وهل تبادل إطلاق النار؟.. أكانت هناك امرأة؟.. ليس هناك وضوح.. فلماذا تفسد أمريكا الحفل الأفضل في العالم؟».

أمريكا هي أمريكا بالفعل.. ويقصد الكاتب بـ«الحفل الأفضل في العالم» الذي تسعى أمريكا إلى إفساده.. هو حفل الثورات والانتفاضات العربية، المطالبة بإصلاحات سياسية واستقلال إرادة وتوزيع ثروات بطريقة عادلة.

نعم أمريكا هي أمريكا مع صدام حسين ومع بن لادن والظواهري والقاعدة ومع داعش أيضًا.. لأن أمريكا لا تتغير.. لكن المسلمين والحركات الإسلامية وقيادييها لا يتعلمون الدروس.

السؤال هنا:

مـاذا لـو كان انضم القاعديـون والداعشـيون والحـركات الجهادية لشـعوبهم في الحراك السـلمي الأبيض، بأداء سياسي وطني راق متطور، إيجابي وبرؤى إستراتيجية تراعي مصالح الأمة العليا؟

الإجابـة: لكانـت احترقت ورقة أمريكا فـي الصراع.. لأنه لن يكـون مثلما حدث ولا يـزال صراعًـا مسـلحًا بيـن دولة عظمـى لديها مـا لديها مـن إمكانيـات وقدرات فوق الوصـف والخيـال، مقابـل تنظيـم عسـكري مطـارد فـي الجبـال والصحـاري والكهوف وبؤر التوتر.. ولكان تحول لصراع حضاري سلمي، بين شعوب تطمح في تحقيق اسـتقلالها وتطالب بالعدالة وبحقوقها المشـروعة، ودول غربية وعلى رأسها الولايات المتحدة، التي تمارس الطغيان والاستبداد والظلم والوصاية على الشعوب والدول العربية والإسـلامية وتستنزف ثرواتها، وتسعى لأن تبقى هذه الشعوب وتلك الدول رهينتها.

هيئـة علمـاء المسـلمين في العراق وعـت جيدًا هـذه القضيـة.. وأدركت خطورة ما فعلتـه وتفعلـه داعـش على الحراك السـلمي الذي بدأه الشـعب العراقـي للمطالبة بحقوقـه المشـروعة.. وأصدرت بيانًا جاء فيه: أن «إعلان أي جهـة قيام دولة أو إمارة إسلامية أو غير إسلامية في ظل هذه الظروف لا يصب في صالح العراق ووحدته».

ونصحـت الهيئـة بالتراجع عـن ذلك.. موضحة أن الأمر «سـيُتخذ ذريعة لتقسـيم البلـد وإلحاق الأذى بالنـاس».. ووصفت دعاوى داعش ومطالبتهـا مبايعة البغدادي كخليفة: أن «هذه الحالة غير ملزِمة شرعا لأحد».

كمـا نصحت بالتراجع عن هـذا الإعلان «خدمة للثورة والثـوار ومراعاة لمصالح العباد والبلاد».

فهل يعي المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها الدرس؟

الفصل الثالث

داعش.. حالة من التخلف الفكري والحضاري

بين داعش وابن تيمية

مـن أروع كلمات الشـيخ محمـد الغزالـي : «إن مصيبـة البعض أنه يقرأ الإسـلام مـن نعلـه».. تأملت هـذه الكلمـة البليغة طويلا.. ولـم أجدها تنطبق علـى أحد مثلما تنطبـق علـى داعش وأخواتهـا من الجماعـات التكفيريـة، مثل أنصار بيـت المقدس وأنصـار الشـريعة وجبهة النصـرة والقاعدة، وغيرهـا.. حيث تحول الإسـلام - وهو أعظم الأديـان قاطبة - علـى أيديهم إلى أضحوكة العالم.. وكأنهم قرءوا قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ بطريقة القراءة من النعل «وما أرسلناك إلا ذابحًا ومفجرًا للعالمين».

وهـؤلاء قـرءوا أقـوال العلمـاء أيضًـا قـراءة خاطئـة ولـم يفهموهـا حـق الفهـم، ونزعوا النصـوص مـن سياقاتها ومزقوهـا تمزيقًا وفصلوهـا عما قبلها ومـا بعدها.. ولـم يربطوها بغيرها مـن النصوص.. واعتبروها جزرًا منفصلـة لا أول لها ولا آخر.. ولا سابق لها ولا لاحق.

سـألتني مذيعـة مسـلمة في إذاعـة BBC العربية بعد التسـجيل قائلة : «هذا سـؤال شـخصي لك: «كل كتابات داعش تسـتدل بأقوال ابن تيمية.. فهل حقًا ابن تيمية يدعو للتكفير والقتل والذبح.. أم ماذا ؟»».

قلت لها: يا سيدتي هؤلاء لم يفهموا شيئًا من علم ابن تيمية وفقهه.. هؤلاء يقرءون الإسـلام من نعله ولا يعرفـون المعاني الحقيقية لكلمات ابن تيميـة، ويريدون تطبيق فتـاوى لابـن تيميـة قالها في أوضـاع مخصوصة، على زمـان غير زمانهـم وواقع غير واقعهم وأحداث غير التي يعيشون فيها .

وقـد صدق المفكـر الرائع عبدالله الطحـاوي حينما قال لـي: «إن أزمة الحركات الإسـلامية مع ابن تيمية أنها أخذت فتـاواه فوضعتها في غير موضعها، وقلدتها تقليدًا

أعمى في غير زمانها ولا مكانها ولا موضعها.. وتركت مشروع الرجل الإصلاحي.. ولو أنها فهمت وقلدت مشروع الرجل الإصلاحي لكان لها شأن آخر».

إن نقل الفتاوى من زمان إلى زمان آخر يستلزم شروطًا كثيرة لتطبيقها، تحدث عنها العلماء قديمًا وحديثًا وكتبت عنها كثيرًا في كتبي القديمة.. ولكن كثيرًا من فصائل الحركة الإسلامية تعرض عن هذه الشروط فتوقع نفسها وغيرها وأوطانها والعلماء الذي تنقل عنهم في حرج بالغ.

فالأحكام غير الفتاوى.. فالأحكام ثابتة والفتاوى متغيرة.. وخاصة تلك التي تُبنى على المصلحة والعرف.. فقد قال عبد الله بن عمرو بن العاص: كنا عند النبي ﷺ فجاء شاب فقال: يا رسول الله أقبِّل وأنا صائم؟ قال: لا.. فجاء شيخ فقال: يا رسول الله أقبِّل وأنا صائم؟ قال: نعم.. فنظر بعضنا إلى بعض فقال رسول الله ﷺ: قد علمت نظر بعضكم إلى بعض إن الشيخ يملك نفسه».. فها هنا المسألة واحدة والفتوى اختلفت.

وتتغير الفتاوى بتغيير الزمان، فالمبارزة مثلًا التي تحدث عنها الفقهاء في فقه الجهاد لم تعد موجودة على الإطلاق منذ أزمنة طويلة.. وأحكام الرق وتوابعها انتهت منذ أزمنة طويلة.. وهؤلاء تلاميذ أبي حنيفة خالفوه في فتاوى كثيرة رغم قرب زمانهم بشيخهم.

وفي بلاد المغرب العربي أثناء الاحتلال الفرنسي أفتى الفقهاء بتحريم التجنس بالجنسية الفرنسية لأنها كانت وقتها مرادفًا لطمس الهوية العربية والإسلامية.. أما اليوم فيسعى إلى الجنسيات الغربية والأمريكية الكثير من الدعاة والعلماء لسبب أو لآخر.. ولم ينكر عليهم ذلك أحد من العلماء والفقهاء.. لأن الزمان تغير فتغيرت معه الفتوى.

قلت للمذيعة المسلمة: سيدتي «داعش» هي «سوبر تكفير» حيث تكفر كل الجيوش والشرطة في كل بلاد المسلمين، وتكفر الشيعة والصوفية والبرلمانات والأحزاب كلها، حتى ذات المرجعية الإسلامية منها.. وابن تيمية ضد التكفير.

قالت: كيف يكون ابن تيمية ضد التكفير، وهو العالم الأساسي الذي تستدل به داعش؟!!

قلت لها: سأرسل لك كلماته في هذا السياق.. وهاأنذا أكتبها لكل من يريد معرفتها على وجه الدقة :

يقول ابن تيمية : «والذي نختاره ألا نكفر أحدًا من أهل القبلة -أي المسلمين- وقد نقل عن الشافعي أنه قال: لا أرد شهادة أهل الأهواء إلا الخطابية فإنهم يعتقدون حل الكذب.. أما أبو حنيفة فقد حكى الحاكم عنه: أنه لم يكفر أحدًا من أهل القبلة.. وحكى أبو بكر الرازي عن الكرخي وغيره مثل ذلك.

ويقول ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٣/ ٢٢٩، وكأنه يرد على من يدعي عليه أنه يؤيد أفكار التكفير: «من جالسني يعلم مني أني من أعظم الناس نهيًا عن أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرًا تارة وفاسقًا أخرى.. وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية.. ومازال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل ولم يشهد أحد منهم على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا بمعصية».

ويقول ابن تيمية في مجموعة الرسائل: «ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ أخطأ فيه.. كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة.. والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعضهم على بعض.. ولا تحل إلا بإذن الله ورسوله».

وعلى هذا فإن أكثر الجماعات التكفيرية مثل القاعدة وداعش وأخواتها والتي تكفر الكثير والكثير من المسلمين وتستدل على ذلك بابن تيمية هي لم تعرف شيئًا عن فقه ابن تيمية.. ولا تحسن قراءة النص الشرعي دائمًا، سواء من القرآن أو من السنة أو من أقوال الفقهاء والعلماء، وعادة ما تقرأه باجتزاء أو تحريف أو إخراج للكلام عن سياقاته.. أو تبني الفكرة أولًا ثم البحث عما يؤيدها من أقوال العلماء.. مع أن الأصل أن تقرأ للعلماء والفقهاء وتدرس أقوالهم وتربط بعضها ببعض، لا أن تضرب بعضها ببعض.. فالقرآن كله متجانس.. وكذلك السنة.. وكذلك أقوال الفقهاء والعلماء.

إن أزمة داعش والجماعات التكفيرية أنها تقرأ الإسلام وتفهمه بـ«الشقلوب» كما يقول العوام في مصر.. أو من «نعله» كما يقول الغزالي -رحمه الله-.

داعش.. وكلب الروم!

أرسلت داعش رسالة عجيبة إلى الرئيس الأمريكي عنوانها «إلى أوباما كلب الروم».. قلت لنفسي: ما علاقة أمريكا بالروم وهي أمة جديدة معروفة من قبل ومكونة من عشرات الأجناس والأديان التي ذابت وانصهرت في البوتقة الأمريكية.. وما علاقة أوباما بالروم وهو أسود من أصول أفريقية؟!

تأملت هذا الخطاب سائلا نفسي: لماذا تستخدم داعش هذه الطريقة الفجة في خطابها لزعيم أكبر دولة، وهي لا تمتلك إلا عشرات الدبابات وتسيطر على عدة مدن في العراق؟ فوجدت بعد طول تأمل أن مثل هذا الخطاب هو جزء من أزمة فصائل كثيرة في الحركة الإسلامية المعاصرة.

إنها تريد إعادة بعض الخطابات التاريخية التي يتداولها الخطباء والوعاظ ليدغدغوا بها عوام البسطاء، ويذكروهم بأمجاد المسلمين وعزهم، دون أن يبينوا لهم أن هذه العزة لم تأت من فراغ.. ولكنها أتت بالعلم والعمل والجد والاجتهاد والبذل والعرق والتقدم في كل المجالات.

إن معظم خطباء الحركة الإسلامية لا يكادون يتركون قصتين من التاريخ: منها قصة المعتصم حينما لبى نداء المرأة التي أسرها الروم «وامعتصماه»، فجهز لها جيشًا جرارًا هزم به الروم.. ناسين أن المعتصم العباسي كان يحكم وقتها نصف الكرة الأرضية ويستطيع محاربة وهزيمة النصف الآخر.

أما القصة الثانية: فهي تلك التي علقت في عقل داعش ولم تخرج منها ولم تسترح حتى أرسلتها بنصها إلى أوباما.. وهي قصة ذلك الخليفة الذي هدد «نقفور» ملك الروم بقوله «إلى «نقفور» كلب الروم».

إننا نكرر نفس الخطاب ونفس القصة دائما حتى لو اختلفت كل العوامل المحيطة بها.. وحتى لو كنا لا نستطيع صنع كاوتش الطائرة الـ F١٦، أو إصلاح أي عطل في

أجهزة الرادار المستوردة من تلك البلاد التي نمني أنفسنا بفتحها وحربها وقتالها دون أن نمني أنفسنا أن نغزوها حضاريا وعلميا وأخلاقيا وتقنيا.

التاريخ كله بما فيه الإسلامي وغير الإسلامي ليس حجة، ولكنه للعبرة والعظة ومعرفة سنن الله في خلقه وكونه.. فالحجة فقط في القرآن والسنة وما تفرع عنهما من أدلة الاحتجاج مثل القياس والإجماع ونحوهما.

وإذا كان قول الصحابي نفسه ليس بحجة كما نص الأصوليون.. أفيكون قول مثل هذا الخليفة حجة؟!

والغريب أن داعش وأمثالها يتركون آلاف الرسائل المتبادلة بين حكام أو ملوك المسلمين إلى غير المسلمين بما كان فيها من أدب راق وخلق كريم، ويعشقون هذه الرسالة بالذات.. لأن فيها من الاستعلاء والشموخ والكبر ما فيها، والغريب أن داعش وأخواتها وممن يتربى على هذه الطريقة يغفل تماما عن خطاب الرسول العظيم المهذب «إلى هرقل عظيم الروم».. و«إلى المقوقس عظيم القبط».. و«إلى كسرى عظيم الفرس».. فما يضير الحركة الإسلامية وداعش وأخواتها أن تستعير هذا الخطاب أو بعض مفرداته من النبي ﷺ وهو أولى بالاتباع؟!

إن جعل بعض صفحات التاريخ الإسلامي حجة على الشرع والدين هي مأساة من مآسينا المعاصرة.. خاصة إذا كان أصحاب هذا من الملوك والحكام «أي من التاريخ السياسي».. ولذلك كان الرسول ﷺ عظيما ودقيقا ومحتاطا لهذا الأمر، حينما صاح في أجيال الدنيا آمرا: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي».

إن محاولة تكرار التاريخ القديم بحذافيره في مواطن لا علاقة لها به ولا تشابهه ولا تماثله سيجر المزيد والمزيد من الويلات على الحركة الإسلامية والدواعش وأخواتها.. وخاصة إذا تأملت خطاب داعش لأردوغان بعد نجاحه في الانتخابات «أيها العلماني سنحتل أرضك ونطردك منها» وخطابات مشابهة إلى بوتين وبريطانيا.

إنها أزمة خطاب وفكر وقراءة خاطئة للتاريخ الإسلامي خاصة والإنساني عامة.. فسيمضي أوباما وسيرحل عن الحكم ولا يهمني شيء.. ولكن ستبقى أزمة الخطاب الإسلامي باقية ما لم نراجع أنفسنا ونحسن قراءة نصوص الشريعة من جهة.. والواقع الذي نعيشه من جهة أخرى.. وكذلك قراءة التاريخ كله قراءة عبرة وعظة وسنن للكون وللحياة، وليس قراءة احتجاج وتكرار ساذج له.

الإسلام.. بين داعش وأم سوتلوف

وجهت والدة الصحفي الأمريكي «ستيفن سوتلوف» رسالة إلى أبي بكر البغدادي زعيم داعش تتوسل إليه ألا يعدم ابنها وطالبته أن يقتدي بالنبي ﷺ في العفو، وقالت له عبر قناة العربية: «بإمكانك أيها الخليفة العفو عنه، وأطالبك بإطلاق سراح ابني واستخدام سلطتك لإنقاذ حياته.. فابني ليست له سيطرة على السياسة الخارجية الأمريكية، وأرجوك أن تترك ابني اقتداءً بعفو النبي محمد.. وأرغب في كل ما ترغب فيه كل أم وهي أن تحيا كي ترى أبناء أبنائها.. أتوسل إليكم أن تمنحوني هذا الحلم».. ولكن داعش أصمت أذنيها عن رسالة هذه الأم، وأعدمت ابنها بصورة وحشية مقززة وفصلت رأسه عن جسده.. ونشرت الفيديو في العالم كله.

ورغم ذلك الفيديو الصادم الذي شاهدته أسرة «ستيفن» وأصدقاؤه ووالدته، إذا بهذه المرأة غير المسلمة تقول: «أمة محمد لا تقتل».. إنها رسالة موجزة قصيرة دقيقة معبرة.. أن أمة النبي ﷺ لا تقتل المدنيين ولا تمثل بالجثث ولا تفخر بقتل الأبرياء.. هذه المرأة لم يحملها غيظها وضيقها وكمدها من داعش أن تدين الإسلام العظيم، ولكنها برأته من هذه الأفعال الصبيانية الهمجية.. وكأنها تنادي في الدنيا كلها: «الإسلام بريء من دم ابني، وشريعته براء من ذلك».

فالإسلام بريء من القتل بالجنسية الذي ابتدعته القاعدة وأفتت به من قبل بقتل كل أمريكي أو يهودي.. فقد حارب الصحابة الروم والفرس ولم يقولوا بقتل كل رومي أو فارسي.. بل إن عمر بين الخطاب كان سابقًا لعصره، حينما كان يقول لجيوشه التي تخرج للقتال: «اتقوا الله في الفلاحين فإنهم لا يناصبونكم العداء»، فقد نطق بالحكم وهو حرمة قتل الفلاحين وهم «المدنيون في عصره».. وبين العلة في ذلك «بأنهم

ليسـوا من أهـل المقاتلة والحرب».. اسـتلهامًا لقوله تعالـى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ ﴾.. «فمن يقاتلنا نقاتله.. ومن لا يقاتلنا يحرم علينا قتاله».

وهـذا المعنـى أوضحه النبـي ﷺ حينمـا رأى امرأة مقتولـة فقال: «مـا كانت هذه لتقتـل».. وفي رواية «ما كانت هذه لتقاتل» وكلا الروايتين تفسـر إحداهما الأخرى.. فمادامت لا تقاتل فلا تقتل.. ويلحق بذلك وصايا النبي ﷺ وخلفاؤه «لا تقتلوا طفلًا ولا امرأة ولا شـيخًا كبيرًا ولا فانيًا ولا راهبًا في صومعته».. وكل هؤلاء هم المدنيون في لغة القانون الدولي الذي سبقه الإسلام بأكثر من ١٤ قرنًا.

إن القتل بالجنسية لم يكن يعرفه الفقه الإسلامي حتى جاءت القاعدة لتخرق أعظم خرق في الإسـلام وتفتي بالقتل بالجنسـية.. ناسـية أن هناك أمريكيا مسـلما أو يابانيا أو صينيـا أو متعاطفـا مع القضية الفلسـطينية أو محبا للعرب أو لا شـأن له بالسياسـة ابتـداءً.. ودون أن تفرق بين أمريكي وآخر.. ناسـية قولـه تعالى وهو يتحدث عن أهل الكتاب: ﴿ لَيۡسُواْ سَوَآءٗ ﴾.. وهي قمة العدل القرآني.

إن هذه المرأة الأمريكية تعرف الإسـلام وتفهمه - رغم عدم إسـلامها - أكثر من داعش وجنودها وكثير من المسـلمين.. لقد برأت الإسـلام والنبي محمد ﷺ من مثل هذا الصنيع، وداسـت على مشـاعرها لتنصف الإسـلام ونبيه الكريم مـن جريمة قتل المدنيين باسم الإسلام.

إنهـا أكثـر درايـة مـن داعـش اسـتلهاما لقولـه تعالـى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾.. ولكـن داعـش وأخواتها يفهمون الآية على نحو غريب: «وما أرسـلناك إلا ذابحًـا للعالمين» أو «مفجـرًا للعالمين».. أو «مفرقًا وممزقًـا للعالمين» أو «مدمرًا للعالمين».. فيندر أن ترى أو تسـمع أو تقرأ عن خبر رحيم وعطوف وفيه شـفقة وعفو صنعته داعش وأخواتها.

والسـر في ذلك أنها عاشـت في مغالطة كبرى وهي نسخ كل آيات الصفح والعفو والرحمة والتعددية الدينية بآية واحدة هي آية السـيف.. وكأن الإسـلام طوال تاريخه بعـد نزول آية السـيف لم ولن يعـرف الرحمة بالآخر أو الصبر علـى الآخر.. أو العفو أو الصلح أو التحالف مع الآخر.. أو قبول التعددية الدينية أو الفقهية أو السياسية.

آه.. يا «أم ستيفن».. أنت برأت الإسلام الرحيم العظيم ونبيه الودود من قتل ابنك ستيفن.. وأنا أقول مضيفًا إلى كلمتك.. الإسلام بريء من قتل السادات باسم الإسلام.. فالسادات هو صاحب أول وأكبر نصر عسكري على إسرائيل في العصر الحديث.. إنه حتى الآن النصر الأول والأخير.

الإسلام بريء من تفجيرات دهب وشرم الشيخ وطابا وغيرها وكلها طالت السياح أو المصريين العاديين الذين لا ناقة لهم ولا جمل في السياسة.. حتى أن تفجير شرم الشيخ قتل فيه ٨٤ شابا مصريا.. كلهم مسلمون فقراء يعملون في شرم الشيخ.. والإسلام بريء من قتل الجنود والضباط في الكمائن أو الطرق أو النقاط الحدودية.

والإسلام بريء من كل التفجيرات مثل تفجيرات الرياض والدار البيضاء وعمان وباكستان.. وتفجيرات المترو في لندن أو مدريد.. وكلها طالت المدنيين المسالمين.

والإسلام بريء من قتل أي متظاهر سلمي.. أو معتصم سلمي كان يمكن فض اعتصامه بالماء أو الغاز.

لقد حملنا الإسلام العظيم أوزارنا وأخطاءنا.. حملناه تفحش ألسنتنا.. وحملناه هوى نفوسنا.. وعمى قلوبنا وشهواتنا وأمراضنا ورغباتنا الشريرة.

وقد خلصت من حياتي كلها أن الله قد لا يغضب ممن يصل إلى الدنيا بالدنيا.. ولكنه يغضب أشد الغضب ممن يريد أن يصل للدنيا بالدين.. أو يريد أن يحمل الإسلام كل أفعاله فيدعي شرعية كل ما يصنع حتى لو كان مخطئا آثمًا.. مثل الذين شرعنوا التفحش في وقت من الأوقات.. فشرعنة التفحش أخطر من التفحش.. وشرعنة القتل أخطر من القتل.

إن أزمة الإسلام الحقيقة تكمن في المسلمين الذين يمثلونه لدى الآخرين حيث يعطون للآخر أسوأ صورة عنه.

ففي بلادنا ديكتاتورية لا حد لها، وفقر لا نظير له، وجهل لا مثيل له، واعتماد على الآخر الذي نشتمه ليل نهار.

فانظـر إلى الأسـلحة كمثـال أو الأجهزة الطبيـة والعمليات الجراحيـة كنموذج.. فنحن لا نجيد حتى تقليد صناعات الغير فيها.. وبعضها لا نستطيع إصلاحه.

إن الغـرب لـو أنفق مليارات الدولارات ما اسـتطاع تشـويه الإسـلام مثلما فعلت داعش وأخواتها.. وصدق من قال: «الإسـلام قضية عادلة يتولاها محامون فاشـلون فتخسـر هذه القضية.. ولو أنهم تركوا الإسـلام يدافع عن نفسه لصال وجال في الدنيا كلهـا: معلمًـا وناصحًـا ومرشدًا..وميسـرًا لا معسـرًا.. ومجمعًـا لا مفرقًا..وراحمًـا لا قاسـيًا.. وداعيًـا لا جابيًا ولا ذابحًا.. ومحببًا للناس لا منفـرًا لهم.. ومحييًاللنفوس لا قاتلًا لها».

هل المواطن مسئول عن سياسة دولته؟

هـددت داعش بقتل الصحفي الأمريكي «سـتيفن سـوتلوف» إذا لم توقف أمريكا هجماتهـا عليهـا.. فما كان من والدته إلا أن وجهت رسـالة توسـل إلـى زعيم داعش ترجوه فيها أن يعفو عن ابنها اقتداءً بالنبي محمد وقالت له: «إن ابني ليسـت له سيطرة على السياسة الخارجية الأمريكية».. ولكن داعش لم تستجب لندائها وأعدمت ابنها.

وهنا يأتي سؤال مهم جدًّا.. هل المواطن مسئول عن سياسة دولته؟

طرحـت هـذا السـؤال وأجبـت عليه في كتبـي القديمة منذ عشـر سـنوات، حينما أحدثت القاعدة خرقًا في الفقه الإسلامي بتبنيها لنظرية «القتل بالجنسية» عام ١٩٩٧، ودعت إلى قتل كل أمريكي ويهودي في العالم.. ناسـية أن المسـلمين الأوائل قاتلوا الـروم والفـرس ولـم يقل أحـد من فقهاء الإسـلام بقتل كل رومي أو فارسـي.. بل إن الإسـلام سـبق القانون الدولـي الحديث في النهي عن قتـل المدنيين وذلك بنصوص واضحـة لا لبس فيهـا.. فهذا نبي الإسـلام ﷺ يهتف بميـزان العدل في جيوشـه أمرًا «لا تقتلوا طفلًا ولا امرأة ولا فانيا ولا زَمِنًا «أي المريض» ولا راهبًا في صومعته».

وهـذا عمر بن الخطاب يقول: «لا تقتلوا الفلاحيـن الذين لا يناصبونكم العداء». والفلاحـون تعبيـر يعبـر فـي عصـره عـن المدنييـن غيـر المقاتليـن أو المنخرطيـن في الجيوش.

ونعود إلى السؤال الأول مجددًا: هل المواطن مسئول عن سياسة دولته؟

والإجابة أن المواطن ليس مسئولا عن أبيه ولا أمه ولا أخيه ولا حتى ابنه.. فكيف يكون مسئولًا عن سياسة دولته.. وهو ليس من صناعها، ولا من أهل التأثير الحقيقي فيها.. قال تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾.. وليس ما سعت فيه حكومته أو قامت به دولته.. إنها شخصية المسئولية والعقوبة أيضًا التي سبق بها الإسلام القانون الوضعي بـ١٥ قرنًا كاملًا.

وينطبق هذا على الدول الديمقراطية أو الديكتاتورية.. ففي الديكتاتوريات لا قيمة للمواطن.. وفي الديمقراطيات قد يفوز الرئيس بفارق ١ ٪.. أي أن ٤٩٪ من شعبه لا يرتضونه ولا يوافقون على سياساته.. وهذا ما حدث مع جورج بوش الابن.. فكان ٦٥ ٪ من الأمريكان يرفضون غزو العراق في استطلاعات الرأي الأمريكية.

وعندما رددتُ على هذه الفكرة الغريبة ردَّ عليَّ د/ أيمن الظواهري في أحد كتبه قائلًا: إن الأمريكي يدفع الضرائب التي تمول الجيش والسياسة الأمريكية فهو بذلك مسئول عن كل ما تفعله دولته؟

فكتبت ردًّا عليه وعلى هذه الفتوى العجيبة وغير المسبوقة قائلًا: «الضرائب قديمة قدم الزمان.. وهي إجبارية وليست اختيارية.. ويصرف مئات المصارف أحدها الإنفاق على الجيوش.. وقد كان الفرس والرومان وكل الأمم التي حاربها المسلمون يدفعون الضرائب ولم يحدث في تاريخ الفقه الإسلامي كله أن قال أحد الصحابة أو التابعين أو السلف أو العلماء بقتل كل رومي أو فارسي».. أو بأن المواطن مسئول عن سياسة دولته.. أو أن المواطن العادي الذي جاء مع الحملة الصليبية مثل الزوجات والأبناء والأمهات مسئولون عن جرائم الحملة الصليبية.

وهذا كله يذكرني بما فعلته المجموعات الليبية المسلحة ومنها أنصار الشريعة مع المصريين الذين يعملون في ليبيا.. حيث ضربوهم بالرصاص أو داسوهم بالأحذية وهم يقولون لهم: «خللي السيسي ينفعكم».. كما ذهبت هذه الميليشيات إلى مساكن العمال المصريين وقتلوا المسيحيين منهم بحجة مسئوليتهم عن عزل مرسي.. مع

أن هذا المواطن المصري المسكين لا شأن له بالسياسة والحكم من قريب أو بعيد.. وقد يمكث شهورًا في ليبيا لا يعرف عن أخبار السياسة في مصر أو العالم شيئًا.

إن هذه الفتاوى البائسة التي تتناقلها أجيال الجماعات التكفيرية أمثال القاعدة وداعش وأنصار بيت المقدس وأنصار الشريعة وجبهة النصرة جيلًا وراء جيل، تمثل أكبر خطر على الفقه الإسلامي والشريعة الإسلامية الغراء الرحيمة والحكيمة.. وإذا كان الإنسان ليس مسئولا عن ابنه ولا يستطيع أن يتحكم في تصرفاته.. فهل يكون مسئولًا عن سياسة دولته؟!

فالطغيان الأمريكي لا ينبغي أن ينسينا قاعدة العدل القرآني: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.. وشنآن: أي ظلم وبغي.

لقد كانت «أم ستيفن» أعقل وأحكم من داعش حينما حاولت أن تفهمها أن ابنها وأمثاله لا يتحكمون في سياسة أمريكا.. وأنه أقل شأنًا من ذلك.. ولكنها كانت تخاطب من لا يرحم ولا يعقل ولا يفقه ولا يعفو.

داعش وأمريكا.. ونهاية العالم

هناك من قال: «ما لم يستطع الرب أن يفعله نعمله نحن»! ولعًا باستدعاء النهايات وخوض المعارك الملحمية وتقمص شخصيات أبطالها.

هذه العبارة قالها الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان في إشارة لمعركة هرمجدون الفاصلة بين الخير والشر.. وهي معركة ملحمية شهيرة، وتعني نهاية التاريخ حسب الرؤية الألفية للعهدين القديم والجديد.

أي أن هناك من يعتنق الفكرة ليس لمجرد التصديق بشيء غيبي سيقع مستقبلًا في ظروف وزمان يعلمه الله في نهايات عمر الأرض، وأيضًا يستحضرها ويستعجل وقوعها بإفناء الآخرين ويمتلك القدرة على فعل ذلك، وهذا رئيس أقوى دولة في العالم ولديه ما يكفي من أسلحة نووية لتدمير الأرض عدة مرات.. وقد قال ما قال إيمانًا منه بما جاء في «الكتاب المقدس» - كما يعتقد هو - من نصوص حول نهاية العالم.. حيث أراد أن ينهي العالم سريعًا ورغب وسعى لأن يكون واحدًا من فرسان معركة هرمجدون الفاصلة التي يقتل فيها كل الكفار - المسلمين تحديدًا - وهو ما عبر عنه عندما كان مرشحًا للرئاسة عام ١٩٨٠م بقوله: «إن نهاية العالم قد تكون في متناول أيدينا، وأن هذا الجيل بالتحديد هو الجيل الذي سيشهد هرمجدون»!

وقال أيضًا: «يوم هرمجدون لم يعد بعيدًا.. كل شيء أصبح في مكانه لا يمكن أن يطول الأمر الآن».

وقال: «إننا قد نكون الجيل الذي سيشهد هرمجدون».

وقال عبر وسائل الإعلام: «إن نهاية العالم قد تكون في متناول يدنا» و«إن تدمير العالم قد يحدث سريعًا وإن التاريخ سيصل إلى ذروته».

ويردد ريجان نص الكتاب المقدس في حزقيال:

«إن النار والكبريت ستمطر على أعداء شعب الله».. ويبدو أنه يشير بأمطار النار والكبريت إلى أن الأسلحة النووية ستدمرهم.

إلى هذا الحد وصل الهوس والجنون برجل غلبت على عقله فكرة تدميرية، وهو يمتلك القوة التي من الممكن استخدامها بالفعل لتنفيذ ما يشتعل في رأسه من تصورات شريرة ومفزعة، لدرجة أنه على استعداد لصب النار والكبريت والقنابل النووية على أعداء شعب الله - كما وصفهم هو -.

أسفار تحدثت عن نهاية التاريخ وكيفية تدمير العالم سيطرت على تشكيل عقلية وثقافة وتوجهات الساسة الأمريكيين قبل وبعد إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية، وبالعودة إلى ملفات كل رؤساء أمريكا، سنكتشف أنها جميعًا لا تخلو من اقتباسات دينية ترسم وتصور أمريكا كمنارة للحضارة العالمية وكسيدة للعالم، وصولًا إلى الفصول الأكثر إثارة ودموية وإفناء وهي دمار العالم في هرمجدون، وشن الحروب على الآخرين، لإنزال المسيح - عليه السلام - من السماء استعجالًا وتأكيدًا للمعركة الفاصلة المصيرية الحاسمة.

ريجان مهووس بالألفية وحاول أن يتمتع بشرف خوض المعركة ولو حتى بدون المسيح نفسه.. وجورج بوش الابن كان هو الآخر شغوفًا ومولعًا بالإيديولوجية الألفية واعترف - زاعمًا - أن الله استدعاه ليخدم وطنه في لحظة أزمة كبيرة وقال: «أشعر كما لو أن الله يريدني أن أكون رئيسًا»!

وفي خطابه بمناسبة توليه منصب الرئاسة عام ٢٠٠١م، أعرب عن اعتقاده أن «الله يدعوه ويدعو أمريكا لقيادة العالم في معركة حددها الله سلفًا».

الأمريكيون يعتقدون أنهم أمة مخلصة، قدر لها الله أن تقود العالم إلى نهاية التاريخ.. وبوش الابن سكنه يقين أن أمريكا هي أصدق نموذج على ظهر الأرض للقيم المقدسة (الحرية والديمقراطية) وأن ما سوى ذلك فينتمي للتخلف والهمجية والفوضى.

وبذلك ليس من المستغرب أن يشن الحرب لفرض تلك القيم على الآخرين، وعلى رأسها قيمتا الحرية والديمقراطية، ولو تطلب الأمر الدخول في حرب عالمية

مع أولئك الذين يناهضون المصالح الأمريكية والقيم الأمريكية، وفي مواجهة القوى التي لديها أطماع ورؤى توسعية إمبراطورية.

ومن هنا اعتبروا الحرب على أفغانستان التي أطلق عليها «الحرب على الإرهاب» حربًا بين قوى الخير وقوى الشر - وفق التصور الأمريكي - واعتبر بوش الابن أنه يقود حربًا صليبية ضد الساعين لإقامة «إمبراطورية الشيطان» من إندونيسيا إلى المغرب في إشارة إلى العالم الإسلامي كله.

واستخدم بوش الابن مصطلح «الحرب الصليبية» تعبيرًا عن الحرب التي يخوضها في البلاد العربية والإسلامية، لإعادة تشكيل الشرق الأوسط بما يخدم أمن وقوة إسرائيل، التي ينظرون إليها كشيء أساسي ومحوري من أساسيات العقيدة الألفية وملاحم نهاية التاريخ.

جورج بوش الابن صور العراق كبؤرة لتفريخ الشر وتصديره، مستندًا إلى نصوص العهد القديم التي تسوّق «بابل العراق» كمصدر ومركز للشرور والانحراف والهمجية والتخلف و«دولة معادية لله»- كما قال - وأن تدمير بابل حتمي وضروري لنهاية العالم والتاريخ.. وأنها المكون الثالث من مكونات إنهاء التاريخ وهي : **أولًا** : إقامة دولة إسرائيل في فلسطين، **وثانيًا** : تدمير بابل بالعراق، ثم **ثالثًا**: معركة هرمجدون المرتقبة وهي معركة الإبادة الأخيرة للكفار وأعداء الرب التي سيقودها المسيح الذي سينزل من السماء - وفق تصورهم -.

إنه هوس ديني بالنهايات ومحاولات لتلبس هذه الحالة واستعجالها، ليكون هؤلاء القادة هم من نالوا شرف خوض المعارك والأحداث الملحمية، ولا يهمهم في سبيل ذلك ما يصنعونه ويخلفونه بعد خوض تلك المغامرات الجنونية من موت ودمار وخراب.. خاصة إذا كان هؤلاء المتلبسون بتلك الأفكار المجنونة، يمتلكون أزرار إطلاق الصواريخ النووية والأسلحة الكيماوية والبيولوجية لإبادة الإنسانية، من أجل إنزال الرب من السماء وتصوير الرب على أنه عاجز وغير قادر على النزول، وبالتالي لابد من مساعدته على ما لا يستطيع فعله، كما قال ريجان : «**ما لم يستطع الرب أن يفعله نعمله نحن**»!

كذلـك الأمر بالنسـبة لكثير مـن المهووسـين المتطرفين على الجانب الإسـلامي من قادة وأعضاء التنظيمات التكفيرية وعلى رأسـها داعش، فهم يستعجلون النهايات ويتعسـفون في تفسـير آيات القرآن الكريم ويوظفون بعض آثـار وأحاديث النبي ﷺ، وخاصـة فيمـا يتعلـق بآثار وأحاديـث الفتـن والملاحم الغيبيـة ليشـعلوا الحرب بين الحضارات وبين الشرق والغرب على أساس ديني.

وادّعـوا وفـق بعض التفسـيرات المتشـددة أن نهاية الحكـم الجبري الـذي تمثله الأنظمة الديكتاتورية المستبدة يعقبه حكم إسلامي بخلافة راشدة على منهاج النبوة.. وهذا يعني قرب نهاية العالم وضرورة تطهير الأرض من الأشرار والكفار – يقصدون بالكفار هنا المسيحيين واليهود وكل من لا يعتنق دين الإسلام – تمهيدًا لحروب آخر الزمان واستقبال المسيح، كما ورد في نبوءة ثابتة وصحيحة عن النبي ﷺ.

والاقتباسـات والشـواهد والتصريحـات والنقـولات كثيـرة جـدًّا عـن قـادة تلك التنظيمـات التكفيرية،وعـن قيادات داعش ومـن خطب أبو بكر البغـدادي وغيره من القيادات، بحيث تضيق بها مساحة الكتاب.

إذًا هناك رؤية مهووسة بالنهايات وباستحضار زمن الملاحم الكبرى لإفناء العالم، تمهيدًا لفرض نمط ديني وفكري واحد عليه، يسعى بها المتطرفون الأمريكيون لتطهير الأرض من المسـلمين بأمطار النار والكبريت والقنابل النووية والعنقودية من جهة.. ويسـعى المتطرفون التكفيريون في الجانب الإسلامي لذات الهدف بالتفجير والذبح والعمليات الانتحارية من جهة أخرى.

وبهذه الإيديولوجية المجنونة من الجانبين جرت المآسي والويلات على البشرية ولا تـزال تفعـل فعلها حتى الآن، لأنها إيديولوجية مهووسـة بتأجيج الحروب ونشـر الأحقاد والكراهية والعنف والدم في أرجاء العالم بأسره.

هـذا التفكيـر ينم عن خلـل واضح في المفاهيـم والرؤى لدى هـذه الجماعات.. وكذلـك فيما يتعلق بالمتشـددين على الجانـب الأمريكي.. فالله تعالـى لا يدعو إلى إفناء البشـرية والقتـل بالجملة، تمهيدًا لأي حدث مهما عظم شـأنه حتى لو كان نهاية العالم، ولا يأمر أحدًا بمثل هذه المهام.

هنا يوجد خلط واضح بين خطابين في الإسلام.. أولهما: الخطاب الشرعي.. والثاني: الخطاب القدري.

والخطاب الشرعي هو التكليفي المتعلق بالأوامر والنواهي الشرعية المباشرة الثابتة في القرآن والسنة.. أي خطاب افعل ولا تفعل، وعليه يترتب الوجوب والنهي والإثابة والعقوبة.

أما الخطاب القدري فهو كل ما يتعلق بالإخبار عن الغيبيات المستقبلية، فهذا الخطاب واجب على المسلمين والمؤمنين الإيمان به وتصديقه إذا صح إسناده عن النبي ﷺ، ولكنهم غير مكلفين شرعًا بالقيام به ولا يترتب عليه تكليف لهم به.. ومن ثم لا يؤاخذون ولا يعاقبون إذا لم يقوموا به، لأنه مجرد إخبار غيبي وليس تكليفا شرعيا.

وقد وردت عن النبي ﷺ أحاديث إخبارية غيبية تنتمي إلى الخطاب القدري حول الفتن وأحداث نهاية التاريخ ونهاية العالم.. وما سيصيب الأمة من حروب داخلية وانقسامات طائفية ومذهبية، وأحاديث أخرى عن غيبيات ستقع، لا ندري متى ولا كيف ولا ندري من سيقوم به.

فتلك الأحاديث والأخبار جميعها تقع في مساحة الخطاب القدري الغيبي الذي نؤمن به ونصدقه لأنه إخبار من النبي ﷺ، لكن لا يترتب عليه أمر أو نهي أو فعل أو ترك.. لأن الذي يترتب عليه ذلك هو الخطاب الشرعي «افعل ولا تفعل»، المترتب على أمر شرعي صريح في الكتاب أو السنة أو نهي واضح صريح فيهما.

نماذج كثيرة للخطاب القدري لا تعد ولا تحصى موجودة في أحاديث وأخبار الفتن والملاحم وأحداث نهاية الساعة، يقع الكثيرون داخل الحركة الإسلامية التقليدية والتنظيمات التكفيرية في فخ تحويلها لأوامر شرعية واجب تنفيذها وتحقيقها على أرض الواقع عاجلًا غير آجل، بدعوى حتمية القيام بها بفعل الحماسة الدينية، دون تبصر وتفريق بين ما هو واجب فعله وما هو واجب تصديقه والإيمان به.

منها على سبيل المثال ما قاله النبي ﷺ: «سألت ربي ثلاثًا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة.. سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها.. وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها.. وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها».

هذا نموذج للخطاب القدري الغيبي والإخبار من النبي ﷺ عن أمور ستقع، فلابد أن نؤمن بما قاله ونصدقه فيها ونوقن بوقوعها، لكن لسنا مأمورين شرعًا بتطبيقها وتحقيقها واستعجال وقوعها.. لأن هذا يتنافى ويتناقض مع الأوامر الشرعية التكليفية.

الخطاب الشرعي المأمورون به نحن كمسلمين يطالبنا على النقيض من ذلك، حيث ينهانا عن الفتن والصراعات والانقسامات والاقتتال، ويأمرنا بالوحدة والاعتصام بأمر الله وبالإصلاح.

فمن يخلط بين الخطابين القدري والشرعي، ويزعم أن هذه الفتن والملاحم وأحداث نهاية العالم والاقتتال أمر لابد من القيام به، فهذا انحراف جسيم في فهم مقصود الشرع، وتخل واضح عن المسئولية الشرعية والأخلاقية.

وكثير من المصائب والأخطاء السياسية والمآسي الإنسانية، وتخريب وتدمير كثير من المدن والقرى وسفك وإراقة كثير من الدماء في العالم كله، جاء من الخلط بين الخطابين القدري والشرعي.

لسنا مأمورين باستدعاء أحداث النهايات والملاحم والتلبس بها والقيام بها، وإن كنا مطالبين بتصديقها والإيمان بوقوعها مستقبلًا.

وحديث الخلافة المشهور على الألسنة - وفي سنده جدل كبير وضعفه الألباني في السلسلة - وقد رواه الإمام أحمد وغيره، وهو عن حذيفة -رضي الله عنه قال-: قال رسول الله ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبرية، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج نبوة ثم سكت».

هذا الحديث - بغض النظر عن صحة السند من عدمه وبغض النظر عن أن هناك حديثا آخر في نفس الموضوع بسند أقوى.. وهو حديث سفينةَ -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «خلافة النبوة ثلاثون سنة.. ثم يؤتي الله ملكه من يشاء» حيث لم يذكر هذا الحديث خلافة ثانية تأتي موصوفة بأنها على منهاج النبوة بعد الخلافة الأولى - بغض النظر عن هذا كله، فهذا الحديث الذى يعتبر عمدة لدى المنادين

بالخلافة والساعين من ورائها لقتال المخالفين والصراع معهم من منطلق عقائدي تلبسًا بالملاحم وأحداث النهايات، ينتمي بامتياز إلى الخطاب القدري الإخباري الذي لا يترتب عليه تكليف شرعي، وإن ترتب عليه تصديق وإيمان بما سيقع في آخر الزمان من خلافة المهدي في نهايات أحداث الأرض ونزول المسيح عليه السلام.

فهذا إخبار غيبي وخطاب قدري نؤمن به ونوقن به ونصدقه كأمر غيبي مستقبلي أخبر به النبي ﷺ.. لكن لا نعلم متى وكيف يكون ومن سيقوم به وفي أي زمان سيقع، وهل المقصود به هو خلافة المهدي أم خلافة عيسى عليه السلام في نهاية الزمان التي يحكم فيها بالعدل وينهي فيها الجور والفساد أم لا؟

إذ ليس من المنطقي ولا المعقول أن يكون ما ورد في هذا الحديث الشريف خطابًا شرعيًّا وأمرًا تكليفيًّا من النبي ﷺ لفئة بعينها وجماعة بعينها من أمته.

فمن هم المأمورون، وأي جماعة من الجماعات هي المأمورة، وفي أي عصر، وفي أي دولة، وفي أي مكان من العالم؟

هناك استحالة أن يوجه هذا الخطاب لأناس بعينهم ليصبحوا كأفراد أو كيانات مأمورين بإقامة كيان بهذه الضخامة.. وتلك المواصفات التي تقترب من مستوى الكمال البشري.

فإذا لم يكن في وسعهم القيام بهذا الأمر والتكليف.. فهل يعاقبون ويؤاخذون شرعًا على عدم قيامهم بهذا الواجب؟

هذا ليس منطقيًّا ولا متناسقًا مع تعاليم الشرع والقرآن؛ فالله تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وهذا خطاب قدري عام إخباري، ولا يستطيع أحد تنزيله على زمن أو عصر معين وإلزام فئة معينة من الناس به، أو تحديد من هم المأمورون بهذا التكليف.

وإذا زعمت جماعة أو تنظيم ما أنه المكلف بهذه المهمة، وزعم أن الخلافة قد قامت على يديه ونصب بالفعل خليفة، فما العمل إذا ادعى تنظيم آخر وجماعة أخرى أن الخلافة تخصها وأن الخليفة هو أميرها دون غيره، حتى ينشأ لدينا آلاف من الخلفاء وزاعمي الخلافة؟

وكان بعـض العلمـاء بالفعل قـد ألمح إلى أن الخلافـة فيدراليـة، وراح يثني على الرئيس التركي أردوغان ومكانته الدينية بين المسلمين وزعامته السياسية، أي أنه يقدم رجب طيب أردوغان كخليفة مناهض لما تم الإعلان عنه في العراق تحت زعامة أبو بكـر البغـدادي، وكذلك ظهـر في داخل داعش ذاتهـا من ينازع البغـدادي في خلافته كأمير ووالي الرقة «أبو لقمان» الذي طعن في نسب البغدادي القرشي.

مؤكدًا أن القرشـية شـرط من شـروط الخلافة والإمامة العظمى وهـو ما لا ينطبق على البغدادي لأنه ليس بقرشي النسب.. بينما ينطبق عليه هو - أي أبو لقمان - زاعمًا أنه قرشي النسب، لولا أن تمكن البغدادي من إخماد هذا التمرد.

وهكذا تتحول الخلافة إلى خلافات ونزاعات وصراعات وفرقة وانقسامات تزيد جسد الأمة إنهاكا وتفككًا.

هكـذا يسـتعجل المتطرفـون والتكفيريـون مـن الجانبيـن نهايـة العالـم بخلل في المفاهيـم وبهـوس جنونـي، يجعلهـم يخوضـون المغامـرات وركوب الشـهرة على حساب سلام العالم وأمن الشعوب واستقرار الدول.

أما أوامر الله الحقة في رسالة الإسلام وغيرها من الرسالات السماوية فبالتعايش والتواصل وإقرار السـلام ونشـر المحبة بيـن الناس.. وبالتعـاون والتبادل الحضاري الـذي يخدم الإنسـان ويحقـق مصالحه ويدعـم العمـران والبنيان والنهضـة وتحقيق سعادة البشرية.

داعش.. والصراع الحضاري مع الغرب

من الملاحظ على الجيل الحالي من التكفيريين أنهم سطحيون وضحلون جدًّا في فهم الشريعة وفي الاطلاع على علومها.. لكنهم محترفون ومتفوقون جدًّا في استخدام تقنيات الاتصال الحديث وتكنولوجيا الحواسب والهواتف النقالة وفيما يتعلق بالأسلحة الحديثة وحتى البيولوجية والكيميائية.

هذا ما تم اكتشافه مؤخرًا في تفاصيل تسريب محتويات أحد أجهزة الكمبيوتر المملوكة لأحد أعضاء داعش، فقد اكتشفوا وجود معلومات دقيقة عن كيفية نشر أمراض الطاعون والفيروسات القاتلة، وكيفية تصنيع الأسلحة الكيميائية.. إلخ.

وهذا بعكس الجيل الأول والثاني من التكفيريين الذين كانوا يتمتعون بحصيلة علمية شرعية جيدة - وإن كان فهمهم لنصوص الشرع وتنزيلها على الواقع في غير موضعه - مع ضعف في الإلمام بمستجدات العلم والتكنولوجيا.

كثير من الشباب المنضمين لداعش متعلمون تعليمًا عاليًا، ويمتلكون الإمكانات والقدرات الإبداعية والحصيلة العلمية - كل في مجاله - للانطلاق والإسهام في نهضة وبناء وطنه، والتصدي لموجات التخلف والضعف والفقر التي تزحف على البلاد الإسلامية والعربية، وتجعلها خائرة عاجزة أمام حضارة الغرب المتقدمة في جميع الميادين والمجالات تقريبًا.

هناك داخل تلك التنظيمات التكفيرية المسلحة كثير من الشباب في جميع الاختصاصات، ولديهم المواهب التي تؤهلهم للعطاء والإضافة لقدرات بلدانهم في الأدب والفكر والطب والاقتصاد والهندسة والفيزياء والرياضيات والكيمياء.. إلخ.

ومن الممكن أن يصبح كثير منهم علماءً ومبدعين ومفكرين وعباقرة مسلمين في كافة التخصصات ومختلف المجالات، لديهم القدرة على المنافسة في سوق الإبداع الحضاري، ولديهم المقدرة والدافع لفرض تفوقهم وإنتاجهم الفكري والإبداعي على العالم كله.

فضلًا عن أنهم ينتمون لدين متفرد لديه القابلية على الانفتاح على الآخر مع حصانة ذاتية ومناعة تحفظ له خصوصياته ومكوناته من الداخل.

وهم ينتمون لأمة تمتلك ثروات وطاقات بشرية وموقعا إستراتيجيا متفردا، يهيئها بسهولة لامتلاك زمام المبادرة، واحتلال المكانة العليا في ميادين التدافع الحضاري السلمي بين الإسلام وغيره من الحضارات، التي تسعى - وهي غير مؤهلة ولا مستحقة لذلك - لامتلاك ذلك الزمام ولاحتلال تلك المكانة.

وهم قبل ذلك كله يمتلكون المرجعية التي تتمثل في كتاب الله -عز وجل- وسنة رسوله ﷺ.. وهي مرجعية لا تمتلكها أي حضارة أخرى في شمولها وعالميتها وامتلاكها كل الخصائص والسمات التي ترشحها بجدارة لأحقية تشييد الصرح الحضاري العالمي الإنساني الكوني الذي يستوعب كل ثقافات العالم، وتعيش في ظلاله كل أفكار ومعتقدات بني البشر بسلام وتعايش وتناغم وأمن.

هذا كله كان يمتلكه كثير من شباب داعش وغيرها من التنظيمات التكفيرية - وأنا أعرف بعض هؤلاء الشباب ممن يمتلكون هذه المواهب والقدرات، ورغم ذلك انضموا للقاعدة وداعش - لكنهم لم ينظروا إلى القضية نظرتنا هذه، إنما نظروا من زاوية ضيقة حرجة، واستفزتهم همجية وهوس ريجان وجورج بوش الابن وبطش الجيوش الغربية في بعض بلاد المسلمين المحتلة كأفغانستان والعراق وما يحدث بفلسطين، إلى إغفال دورهم الطبيعي المنوط بهم في ظل اختيارات الإسلام المتعددة للتعامل مع الواقع، ودورهم المنتظر في ميدان التدافع الحضاري السلمي لتمكين الإسلام من مكانته ولإعادته إلى سابق ريادته.

هم تساءلوا:

مادامت الحضارة الغربية تنكر هذا المشترك الإنساني وتقهر وتضطهد الإنسان المسلم في أفغانستان والعراق وفلسطين.. فلماذا يحافظ المسلمون على هذه القيمة التي ضرب بها الغربيون عرض الحائط؟

كانت تصرفاتهم وخياراتهم ومواقفهم مجرد ردود أفعال لما ارتكبته رموز الحضارة الغربية في بلاد المسلمين.. ولم تكن ضمن سياق المشروع الحضاري الإسلامي الفاعل المدروس بمفهومه الشامل.

إنما تصرفات انفعالية حماسية هوجاء غير مدروسة، وإن كانت مدروسة جيدًا من الأمريكان الذين يتوقعون صدور ردود الأفعال تلك وينتظرونها، ليبنوا عليها أفعالهم المخطط لها جيدًا باحترافية العقل الغربي البراجماتي الإستراتيجي.

هذه الانتهاكات التي مارستها الحضارة الغربية في بلاد الإسلام لا تستفز الإسلام نفسه، وليست ذات أدنى تأثير على كون الإسلام هو المشروع الحضاري الإنساني القادم القادر على جمع بني البشر وقيادتهم إلى بر التعايش الآمن - لا إلى الدمار والخراب وحروب الكبريت والنار وأمطار القنابل النووية والقصف والتفجير والعمليات الانتحارية -.

وإن قدرت تلك الانتهاكات على استفزاز بعض أبناء هذا الدين الذين غفلوا عن دورهم الطبيعي، والذين تنكروا لدورهم الطبيعي كدعاة وهداة وعلماء ومفكرين ومبدعين في جميع المجالات والتخصصات، يبصرون الناس بأدوارهم في ميدان نهضة الإسلام ويعطون النموذج للفنان والمبدع المسلم والمهندس والمستثمر والمخترع والطبيب المسلم.. إلخ.

لكنهم اختاروا الطريق الخاطئ الانفعالي الحماسي الذي لا يترك أثرًا حقيقيًا في اتجاه وسياق نهضة الإسلام والأوطان.

يفجرون ويقتلون ويذبحون ويقومون ببعض التفجيرات العشوائية ويشوهون صورة الشريعة ويهيئون المناخ لإضعاف الأمة وتمزيقها وتقسيم أراضيها.

لا ننكر دور ما ارتكبته الحضارة الغربية من انتهاكات ومذابح وقتل للمدنيين والنساء والأطفال في تعزيز الفكرة الانعزالية والتصادمية وإشعال الصراعات الطائفية والمذهبية، لكن شبابنا من الصفوة والنخبة والمثقفين المنضمين لداعش لم يفطنوا

إلى ما فطن له الغربيون، وكان دافعًا ومنطلقًا لهم في تسيد ساحة التدافع الحضاري إلى حين.

أول العلم بالدين والشريعة معرفة مسئوليتنا - كمسلمين - ودورنا الريادي في الكون.. فكتابنا الكريم يخبرنا أننا ورثة آدم عليه السلام في السيادة على الأرض التي سُخر لنا ما فيها.

ورغم أحقيتنا بقوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ و﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.. إلا أن هذا العلم باختراعاته وإنجازاته الكبرى في أعماق البحار والأرض وعلى سطحها وفي آفاق السماء مُسجل بأسماء وعناوين أبناء آخرين لآدم من ألمانيا وانجلترا وفرنسا وأمريكا.. إلخ.

لم يفطن هؤلاء الشباب إلى أن مشروعهم ومنطلقهم في التدافع مع الحضارة الغربية التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية، لا يسهم إيجابيًّا في خلق مناخ يساعد في بناء دولة عصرية حديثة تملك مقومات المدافعة الحضارية، وقادرة على الصمود والاستمرار في سوق المنافسة العالمي إعلاميا وثقافيًّا من أجل إبلاغ قيم الإسلام الحضارية للعالم أجمع، حتى وإن استطاعوا السيطرة على هذه البقعة من الأرض هنا وهناك.. فالدول والحضارات ليست مجرد مساحات جغرافية وبعض الأسلحة، إنما أشمل وأوسع وأعمق من ذلك بكثير.

الدول والأمم امتداد ثقافي وحضاري وتاريخي وميراث قيمي وتفاعل اجتماعي وديني، ومحصلة مجهودات شعوب أرض ودولة على امتداد قرون في الصناعة والتجارة والزراعة والثقافة والحرب والسلم والإبداع والفنون والنضال والكفاح، وتوارث الخبرات والتجارب والعلم والفكر.

ونموذج ذلك ما حدث عندما استولت حركة قادة طالبان الأفغانية على بقعة من الأرض في أفغانستان قبل الغزو الأمريكي لها وقالت إنها أقامت هناك إمارة إسلامية.

هل سأل شبابنا الذين انضموا لداعش أنفسهم هذا السؤال:

لماذا انهارت وتهاوت أركان دولة طالبان الإسلامية في أول اختبار واجهته على صعيد المدافعة الحضارية مع الغرب ومع الولايات المتحدة الأمريكية؟

الإجابة نضعها أمام شـبابنا في كل مكان من أرض الإسلام: لسبب بسيط وواضح وهـو غفلـة مـن أقاموهـا وقادوها عـن أهمية بنـاء دولة عصريـة قوية تمتلـك عوامل ومقومـات صمودهـا وبقائهـا.. وقادرة على حماية الشـريعة التي تحكـم بها، وقادرة على المنافسة والبقاء، وقادرة على توصيل كلمة الإسلام للعالم كله.

فطـن الغـرب أنهم أمام عـدو هزيل ضعيـف، وانتهـزوا الفرصة الثمينة واسـتغلوا الفـوارق الكبيـرة بيـن مـا يمتلكونه مـن إمكانيـات وقـدرات حضاريـة وتكنولوجية ضخمـة.. وما تمتلكه تلـك الدولة الفقيرة المنعزلة المتقوقعة على ذاتها فهدموها قبل أن يستكمل بناؤها.

طالبان أثبتوا بقدرتهم العسكرية وبسالتهم في ميدان القتال رغم ضعف الإمكانات أنهم موجودون ويستطيعون الرد في الحرب.. لكنهم لـم يستطيعوا إقامة دولة إسلامية قـادرة على التدافـع الحضاري مع الغرب، دون أن تطلق رصاصة واحدة من رشـاش أحد مقاتليها.

قد تستطيع داعش وقياديوها وأعضاؤها الصمود لبعض الوقت في مواجهة أمريكا والغـرب علـى أرض العـراق.. لكنهـم غيـر قادرين بهذا الأسـلوب علـى صنع دولة إسـلامية عصرية حضارية موحدة قوية متماسكة، تحفظ حضارة الإسلام وتدافع عن تراثه وثقافته في سوق التدافع الحضاري العالمي.

الدولـة الحضاريـة التي تنهض وتصمـد أمام التحديات لها مقومات وشـروط من تعددية وتنوع وفهم عميق لروح الشرع، وتفاعل منطقي ومتوازن مع الماضي والواقع والحاضـر، واسـتفادة وتكامـل مـع المجتمعات والشـعوب والحضـارات المحيطة وتطويـر للفقه السياسـي الإسـلامي والاسـتفادة مـن مسـتجدات الفقه الدسـتوري، وترتيـب للأولويـات مـن بناء وتربيـة الإنسـان وتربية الضميـر الحـي، والتكامل بين الخبـرة والكفاءة وبين أهل الفقه والدعوة والعلـم والورع والتكامل بين رجال الدولة والسياسـة ورجـال العلم والدعـوة، والبدء بترسـيخ قيم ومبـادئ الشـريعة العليا من شـورى في اختيار السلطة ومشاورة في أدائها وحرية وتعددية ومساواة وعدل وعدالة اجتماعيـة، ثم الاهتمام بمـا دون ذلك من قوانين وتشـريعات في مختلف المجالات تحت مظلة هذه المبادئ العليا الراسـخة، والبدء بمحاربة الجهل والقضاء على الفقر

وإزالة الفوارق الطبقية العميقة وتشغيل العاطلين وإدارة عجلة الإنتاج والعمل على توفير حياة كريمة للمواطن أيًا كان معتقده وانتماؤه، واحترام المخالفين في العقيدة وحماية دور عبادتهم وممتلكاتهم ومعاملتهم كمواطنين كاملي الأهلية والحقوق، وتقدير ما استقر عليه الوضع من نظم سياسية ودول وطنية وما يسمى بدولة العقد الاجتماعي وإيجاد خلفية ومرجعية لها في تراثنا وتاريخنا كما حدث في دولة النبوة في المدينة المنورة.. مع السعي لتحقيق الوحدة والتعاون الاقتصادي والسياسي والتجاري بين الدول العربية والإسلامية، بما يتيح تحقيق مصالح الأمة بما يوافق الشرع ولا يجافي الواقع ويتناقض مع مستجدات ومتطلبات وحاجات العصر، وكذلك الانفتاح على الآخر وبناء جسور الثقة والتعاون مع الدول والقوى الإقليمية والدولية.. وجميعها شروط ومقومات لا تتوفر في دولة داعش التي تقوم على قلب الأولويات رأسًا على عقب وعلى معاداة العالم كله وإعلان الحرب على الجميع، على أسس دينية مع الغرب وعلى أسس مذهبية مع الشيعة وإيران.

داعش ومثيلاتها من تنظيمات تكفيرية تسير على منهج ذلك الشيخ الذي أعلن يومًا على الملأ أنه سيعمل على تحفيظ الشباب القرآن ليستطيع بهم أن يقاوم الحضارة القائمة.

أما الصواب والأقرب لروح الإسلام والأجدى نفعًا فهو تحفيظ الشباب القرآن وتعليمهم مبادئ الدين الحنيف ليستطيعوا الإسهام في بناء الحضارة القائمة.. لأنها حضارة عصر نعيش فيه ونتفاعل معها، ونأخذ منها ونعطيها ونستفيد منها ونفيدها، ونتكامل معها لإسعاد البشرية ماديًا وروحيًا، وليس لإنهاكها وتدميرها ونشر التعاسة والأحزان والآلام في ربوع العالم .

الأمة الإسلامية تخلفت كثيرًا عن ركب التقدم والازدهار والتكنولوجيا وأضعفتها الفتن والحروب والانقسامات.. وللأسف تزداد يومًا عن يوم تخلفًا وفقرًا وانقسامًا وتمزقًا، وتسهم داعش والتنظيمات التكفيرية في ازدياد رقعة التمزق والانقسام والضعف.

والمقياس الوحيد الذي نراه معيارًا للتقدم هو مشاركتها بشبابها وعقولها المبدعة في بناء عصرها.. وفي الابتكار وعملية البناء، لتجد الأمة ما تعتز به وتفخر في موكب العصر.

ليس على المسلمين الشعور بالدونية والنقص لكونهم لا يمتلكون ما يمتلكه الغرب من مظاهر الحضارة الحديثة والتقدم العلمي المبهر، أو لأنهم فقدوا الأمل في المقدرة على منافسة الأوربيين والدول الكبرى في المجال العلمي أو التكنولوجي أو العسكري، بل عليهم أن يفخروا بما يمتلكونه من كنوز وما يحملونه من شريعة وتراث وتاريخ، وقيم ورؤية شاملة متجانسة للكون والإنسان، وعليهم أن يحسنوا تقديمها للعالم الذي هو في أشد الحاجة إليها اليوم.

ولقد اكتسبت الحياة الفكرية في الغرب خبرة كبيرة في التعامل مع الإسلام وقضاياه، وصار لهذا الدين العظيم حضور قوى ومؤثر ومكانة مرموقة في أوساط الجماهير الغربية بما لا ينبغي تجاوزه أو تجاهله من قادة ورموز تلك الدول، وبما يجبرهم على فتح أبواب أخرى للتعامل مع قضاياه والتفاعل معه من أبواب ومنافذ أخرى غير أبواب الصراع والصدام، وعلى المسلمين جميعًا تفهم وإدراك تلك المتغيرات جيدًا.

نحتاج إدراك أن الإسلام ذو منحى إصلاحي تكميلي، ونبينا ﷺ إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق، لا ليهدم كل ما هو قائم حوله وفي واقعه ليبدأ البناء من جديد.

لا نخاف على ديننا وقيمنا فهي محفوظة وراسخة ومنتشرة في كل بقاع العالم، ولنذهب إلى أبعد مدى بثوابتنا وقيمنا لنستفيد من خبرات الآخرين، ولننهض ببلادنا ونخدم دعوتنا ورسالتنا، ولنستخرج ذهبنا ونحاسنا وثرواتنا الفكرية والعلمية وكنوزنا الحضارية والثقافية، لتلمع في السماء وتهدي الحائرين.

ليس الأمريكان ولا الإنجليز كلهم سواء، وليس الغرب والأوربيون جميعًا أعداء لنا، بحيث نجزم ونقرر قرارًا لا رجعة فيه أنه لا مجال للقاء ولا حوار بيننا وبينهم ولا فرصة لتعايش وتكامل وتعاون؛ فمنهم الملكة إليزابيث التي كرمت سلمان رشدي صاحب آيات شيطانية المسيئة للإسلام ومنحته وسام فارس، ومنهم ابنها ولي العهد الأمير شارلز الذي لا ينكر في محاضراته وتصريحاته فضل الإسلام ورقي

حضارته وتميزها على الحضارة الغربية، فهذان موقفان متباينان من الإسلام يعيشان تحت سقف غربي وفي بيت غربي واحد.

ومن الأمريكان بوش الابن وتياره اليميني المتطرف الاستعلائي الصدامى، وفي المقابل منهم كثيرون جدًّا من يناهض هذا التوجه ويرفضه ويدعو لنقيضه.

منهم أمثال «جولدن براون» و«توني بلير» وأعضاء اليمين المتطرف في بريطانيا، ومنهم أيضا «جورج جالاوي» ورفاقه الذين قادوا قافلة شريان الحياة إلى غزة قبل سنوات ويناصرون قضايا المسلمين هنا وهناك.

فكما أن هناك في أوربا أعداءً وخصومًا للمسلمين، فهناك أيضًا لهم أصدقاء ومحبين.

يتكامل الإسلام مع ما سبقه من قيم وتراث أخلاقي، وكذلك يتكامل مع ما جاوره وعاصره من حضارات ويتفاعل معها ويفيدها ويستفيد منها.

فقد تضمن دستور المدينة في العهد النبوي أقرارًا لأعراف القبائل العربية وتحولت تلك الأعراف جزءًا من الفقه الإسلامي فيما بعد.

وأثنى النبي ﷺ على عدل دولة الحبشة في حديثه الصحيح عن عدل النجاشي ـ وهى دولة مسيحية ـ ؛ لذا يمكن استمداد القوانين من أعراف الشعوب المسلمة ومن قوانين الدول غير المسلمة، بشرط ألا تناقض هذه القوانين النص الإسلامي وأن تخدم مقاصد الشرع العليا ومصلحة الأمة.. كما قال ابن القيم ـرحمه اللهـ: **«أي طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها»**.

أما ما ترتكبه داعش وغيرها من تنظيمات تكفيرية، فهو إضعاف لوحدة الأمة وإشعال لنيران الفرقة على أسس طائفية ومذهبية، وإشاعة لروح الكراهية والتربص والتناحر.. وهي روح شريرة تقضي على المقوم الأساسي لوحدة الأمة ودعامتها الجوهرية وهو مقوم الإخوة الإسلامية.. وإذا انهارت هذه الوحدة تمامًا تهاوت قدرات الأمة وخارت وتوقف سيرها الحضاري وتقدمها العلمي وسهل على المنافسين احتواؤها والسيطرة على مقدراتها.

بين ميشيل وداعش

الأستاذ ميشيل أمين أديب لبناني يعمل في صحيفة الزمان التي تصدر في لندن.. وهو شخصية مسيحية متسامحة مع نفسها ومع الكون كله.. وليس هناك تفسير للقرآن إلا وتجده في مكتبته.. ولم يدع كتابًا جيدًا عن النبي ﷺ إلا قرأه، وهو يحب تفسير الفخر الرازي الشهير للقرآن الكريم حبًّا شديدًا.. وهو التفسير الأساسي الذي اعتمد عليه الشيخ الشعراوي في تجلياته الدعوية والإيمانية.

وأ/ ميشيل أمين شاعر موهوب لا يشق له غبار.. ولا تمر ذكرى مولد النبي ﷺ في كل عام إلا ويكتب قصيدة مدح في الرسول ﷺ.. وقد روى لي أ/ محمد عبد الشافي القوصي الكاتب بـ«الأهرام إبدو» أن أ/ ميشيل أمين زار إحدى القرى البريطانية التي يسكنها عدد من المسلمين البريطانيين وكان يلبس زيًّا عربيًّا فاستقبلوه استقبال الفاتحين الأوائل.. وكأنه أحد الصحابة وخاصة أن أ/ ميشيل أمين يتمتع بوجاهة وجمال وعروبية رائعة في السمت والخلق وخاصة إذا ارتدى الملابس العربية.

اجتمعوا حوله وحينما جاء وقت الصلاة قالوا له: نريد أن نسمع الآذان بصوتك.. تردد واستحى أن يقول لهم: إنه مسيحي.. ولكنه اضطر لقولها.

قالوا له: وما المانع؟.. نريد أن نسمع الآذان بلغة ولهجة أهله.. وجد نفسه يؤذن للصلاة بصوت شجي جميل.

ومن مآثر أ/ ميشيل أنه شارك في صلاة الجنازة على الشاعر الشهير نزار قباني رغم أنه مسيحي فلما استغرب البعض لذلك قال: وهل أنجب العالم العربي شاعرًا مثل نزار قباني.. ذلك في الوقت الذي امتنع فيه بعض السلفية في لندن عن الصلاة عليه.

ومن مآثره أيضًا أنه زوج شـقيقته لرجل مسـلم ارتضى دينه وخلقه وقال لها: إن لم يكن هذا الرجل الذي يفهم الإسلام بحق أمينًا عليك.. فلن يكون هناك أمين عليك.

ومن مآثره أنه كتب مقالة اسـمها «في هوى النبي محمد» فلما سـأله أحد أصدقائه عـن سـر كتابته لمثل هـذه المقالات قال: إنني أجد راحة نفسـية فـي الكتابة عن النبي محمد.. إنني عندما أفخر بالعروبة لابد أن أبحث عن رمز عال ورفيع مثل النبي محمد.

وحينمـا كان بعـض أصدقائه يقـول له: كيف تكتـب ذلك عن النبـي محمد وأنت مسـيحي.. يقـول: إن أغرب ما في حياتنا أن محمدًا والمسـيح كالشـقيقين المتوادين المتصافييـن المتحابيـن إلى أقصى الحـدود.. في حين أننا نتناحـر ونتباغض ونتقاتل ونتعصب إلى أبعد الحدود.

ومـن أعظـم مآثـره كشـاعر ديوانـه الشـهير «نبـي الهـدى» وفـي إحـدى قصائده شـطرة شـهيرة كررها وهـي: «فبأي آلاء النبـي تكذبان».. وكل قصيدة فيه تعد شـرحًا عظيمًا للإسلام.

تأملت هذا النموذج الإنساني الفذ عظيم التسامح والتغافر والمحبة والمودة والذي لا يكاد يكره أحدًا.. إنه في سلام مع ربه ونفسه والكون والناس والطير والعالم كله.

قارنـت بينه وبين نموذج داعش.. وسـألت نفسـي سـؤالًا عجيبًا فزعـت له برهة : أيهما أفهم للإسلام ورسالات الأنبياء؟ وأيهما أعظم تطبيقًا لها؟ وأيهما أصلح للكون وللناس؟.. وأيهما أكثر ترغيبًا للناس في ربهم وفي الأخلاق الحميدة؟.. وأيهما أكثر حمـلًا لميراث الأنبيـاء؟.. وأيهما تأمنه الناس ولا تخافـه؟.. وأيهما تختاره لك جارًا أو صديقًا أو قريبًا؟.. وأيهما تتعلم منه الأدب الراقي والمعاني الإنسانية؟ وأيهما أنفع للنـاس والمجتمع؟ إنها ليسـت مقارنة أديان.. أو بين جنـة ونار.. أو نحل ومذاهب.. إنها مقارنة بين نماذج بشرية بعضها يسيء وبعضها ينفع.. بعضها ينفر وبعضها يبشر.. بعضهـا يكـره وبعضها يحـب.. بعضها يقتـل وبعضها يحيي.. بعضهـا يذبح الآخرين سـعيدًا بفصل الرءوس عن الأجساد وفرحًا بتصويرها وبثها عبر الفضاء.. بعضها مثل

داعش تسـعد بهدم قبر النبي يونس وقبر النبي شيث بن آدم.. وهذه أول مرة يهدم فيها قبر النبي شيث في التاريخ .. وهو نبي أنزلت عليه صحائف.. وبعضها صحبته تعلمك الحب والود والتسامح و«إن لم يصبنا منها وابل فطل».

إن الأديـان السـماوية الثلاثة بريئـة من ظلم الظالمين وعسـف الجبابرة وسـباب الشـتامين وجـور الحـكام الديكتاتوريـن وسـوء الخلـق وتكبـر المتكبرين.. وفسـق الفاسـقين.. وأكل أموال الناس بالباطل.. وقتلهم بغير حق.. وأعظم الآثام هي نسـبة هذه الآثام إلى الشرائع والأديان السماوية.

الخلافة التى يحتاجها المسلمون اليوم

الفيلسوف الألماني جوتة الذي يتضمن تراثه الإبداعي والفكري شغفا وتقديرا وإجلالا كبيرا للإسلام وشريعته وعقيدته ورموزه.. يقول: إذا كان الإسلام هو التسليم لله فإننا كلنا نحيا ونموت في الإسلام.

وهناك في الغرب لا يتحدثون في الدين كثيرًا ولا ثمة مظاهر تدين منتشرة على نطاق واسع كما هو الحال في بلداننا.. وتلك أمور خاصة بعلاقة الإنسان بربه لكن التعاملات الإنسانية والحياتية هناك في مستوى القمة غالبًا.

وبلادنا – الإسلامية – تضج بمظاهر التدين مع حالة جفاف أخلاقي حاد؛ فهناك كثيرون يصلون ويحجون ويصومون، وفي نفس الوقت يكذبون ويغدرون ويظلمون ويرتكبون الجرائم التي يندى لها جبين البشرية، وقراءة يومية لصفحات الحوادث في صحفنا تكفي لاكتشاف هذا الكم الهائل من التدني الأخلاقي والقيمي والإنساني.

وقد ذكر الدكتور عبد الحليم محمود أن عالمًا أمريكيًا زار الأزهر عام ١٩٤٨م وقال في حوار له مع شيخه وقتئذ الإمام «عبد المجيد سليم»: إن الغرب الآن في مرحلة روحية مضطربة.. ومن الممكن أن يتجه إلى الإسلام، ولكن من المحتمل أيضًا أن يتجه إلى صوفية الهند.. فهل أعد الأزهر برنامجًا لتوجيه الغرب نحو الإسلام؟

الغرب لا يحتاجون اليوم سيوفًا ولا جزية ولا حرب لكي يعتنق الإسلام.. ومن لم يعانق الإسلام منهم بينه وبين الإسلام شعرة بسلوكه الحياتي الذي يقترب من فلسفة الإسلام.

وما مظاهر الانحراف والعري والجريمة هناك إلا فقاعات على السطح، تجد في بلادنا أفظع منها، وما هي في الغرب إلا رغاوٍ كثيفة على السطح، تخفي داخلها وفي

عمقها حياة تمور بالعمل والنضال والكفاح والاختراع والجد والاجتهاد والتفكير والخطط والإنتاج، والإبداع المتواصل في شتى فنون الحياة وميادين العمل.

الأهم من ذلك أن أوربا ومعها أمريكا تخلصت من الاستبداد أيًّا كان مصدره، وقلبت العلاقة بين الحكام والمحكومين رأسًا على عقب، بما يجعلهم أقرب إلى مقاصد وقيم ومبادئ الشريعة الإسلامية العليا من المسلمين أنفسهم.. فأين الشورى في اختيار الحاكم والمشاورة في أداء السلطة؟

وأين العدل والمساواة والحرية واحترام المخالف والأقليات.. هنا عندنا في بلاد المسلمين أم هناك عند الغرب؟

وأين يتساوى الحاكم والمحكوم أمام القانون، هنا في بلادنا أم في بلاد الغرب، التي تحاكم المسئولين والوزراء والرؤساء إذا وجه إليهم اتهام، شأنهم شأن أي مواطن عادي؟!

تظهر داعش بتطبيقات شائهة للشريعة بالخلط بين الأخلاق والقانون فيتتبعون من لا يصلي ومن لا يصوم بالعقاب.. وهذه أمور لا تتدخل فيها الدولة، بينما تهمل رعاية مصالح الرعية والمساواة، وعدم الاستئثار بالسلطة ورعاية حقوق غير المسلمين..إلخ.

وتلك هي أصل الشريعة ومبادئها وقيمها الأساسية المطلوب من الحاكم في أي مكان وزمان تطبيقها وتحقيقها.

الأهم والأولى هو القيم الدستورية العليا من شورى وعدالة وعدل ومساواة وحرية وتعامل مع المنصب العام، باعتباره أمانة لا ملكية خاصة واختيار حر شفاف للحاكم وإخضاعه للمساءلة.. وهذا الجانب الأساسي في الشريعة عطله المسلمون أنفسهم منذ منتصف القرن الهجري الأول، وأحياه الغربيون بعد قيام ثوراتهم على الملكية وتحكم الكنيسة وتسلط رجال الدين إلى اليوم.

داعش قد تطبق جزئيات فرعية قانونية مثل تطبيق بعض الحدود والعقوبات البدنية.. لكنها تبقى بلا قيمة تذكر لأن القيم الدستورية والمقاصد العليا والمبادئ المستمدة منها تلك القوانين معطلة وهناك استبداد باسم الدين، في حين يستطيع

الأمريكان والطليان والإنجليز محاكمة مسئوليهم وحكامهم، بينما مستحيل أن تنال ذلك مع داعشي يتصور أن عروقه تجري بها دماء مقدسة.

ونستطيع قراءة المشهد العام بوضوح إذا استدعينا حديث النبي ﷺ «كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه.. وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد».. فالقيم العليا من مساواة وعدالة التي يستوي أمامها الجميع غائبة، فلا قيمة ساعتئذ للقوانين ولا للحدود.

لأن القيمة الأساسية والمبدأ الأعلى هو المساواة أمام القانون «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».

أما شكل العقوبة ومقدارها فأمر فرعي لا يتقدم بحال على القيمة الكلية والمبدأ الأعلى، فإذا غابت القيمة والمبدأ وحضر القانون العقابي أو الحد فهذا هو الانحراف بعينه، وهذا هو التطبيق المسيء والمشوه للشريعة الإسلامية، والذي حذر منه الرسول ﷺ وأنكر على مرتكبيه أشد النكير «كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه.. وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد».

ولا ينتمي لشرع الإسلام في شيء تصرف حاكم يقيم حد السرقة أو الزنا أو شرب الخمر على ضعيف ومواطن عادي، ويترك تطبيق ذات القانون ونفس الحد في حال وزير أو رجل أعمال أو فنان مشهور أو أحد أقربائه أو أحد المقربين منه.

فالإسلام يعتني أول ما يعتني بالقيم والمبادئ العليا من عدالة وشورى ومساواة، قبل الجزئيات والقوانين العقابية.

وكذلك لا ينتمي لشرع الإسلام في شيء تصرف حاكم يدعي أنه خليفة، وقد بايعه مجموعة من أتباعه دون اتباع منهج الإسلام في اختيار الحاكم بالشورى بين المسلمين، عبر الاختيار الحر للأمة بحسب الآليات التي اتفقوا عليها وانتهوا إليها لتحقيق وإنجاز هذا الاختيار.. وإلا فالقيمة والمبدأ العام غائب هنا وهو مبدأ الشورى، وإن انتمى مصطلح ومسمى الخليفة للتراث الإسلامي.. فإذا غابت المبادئ العامة فلا قيمة وقتئذ لجزئيات وفرعيات ومسميات وشعارات ومظاهر.

داعش وزعوا البنادق وأطلقوا لحاهم وأطالوا شعورهم وكتبوا بعض اللافتات التي تشير لقيام دولة الخلافة الإسلامية، ونشروا بعض الفيديوهات التي تصور إقامة

الحدود على السارقين والزانيات، واستولوا على بعض آبار النفط وبعض البلدات، وأعلن أحدهم فجأة أنه خليفة المسلمين!

فهل هذه خلافة؟

ومن أعطى هذا الرجل الحق للتحدث باسم الإسلام والشرع؟

ومن فوضه ليخوض حروبه الخاسرة نيابة عن الأمة؟

الخلافة التي دوخت العالم كله وكبدت القوى المعادية جهودًا وأموالًا وعقودًا طويلة من العمل والتخطيط لكي يتمكنوا من إسقاطها في عشرينيات القرن الماضي بعد طول عناء، تريد داعش بسهولة إهداء رفاهية إسقاط خلافة وهمية مهترئة لم تقم في الأساس للولايات المتحدة الأمريكية.

الآن يستطيع باراك أوباما وهو جالس بمكتبه البيضاوي بواشنطن ممددًا ساقيه الطويلين على مكتبه مرتديًا حذاءه اللامع إسقاط هذه الخلافة المدعاة بكل سهولة، ليس بصواريخ سكود وطائرات بدون طيار.. إنما بالقوة التي منحتهم إياها المبادئ والقيم الدستورية العليا للشريعة، حتى لو لم يكونوا مسلمين.

مشروع الإسلاميين.. ومشروع الأمة

القضية تتعلق بملف حضاري زاخر وبمستقبل حضور هذه الأمة بأسرها وحجم تأثيرها في توجيه البشرية إما إلى الإنهاك والحروب والصراعات أو إلى النهوض والخير والسعادة والسلام.

وبرؤية إسلامية شاملة تحدد دور المسلم عمومًا وموقعه في الكون والمجتمع وإسهامه في الإضافة لحركة الإنسان وثقافة المجتمعات وحضارات الأمم وعطائها الإنساني في هذا العصر من عدمه، وليست فقط قضية الحركة الإسلامية ومشروعها الخاص بها، نظرًا لتطور التعامل الحضاري الغربي وتعاطيه مع هذا الملف تحديدًا بعد الحادي عشر من سبتمبر، وبروز دور الحركات الإسلامية بعد الثورات العربية وتأثير هذه الأدوار مجتمعة - سواء الإيجابية أو السلبية - على صورة المسلم والإسلام على المستوى الحضاري والكوني.

هناك تجارب ممتدة عبر التاريخ ومسيرة الحكم الإسلامي ذاخرة بالدروس والخبرات، والمحك الحقيقي ليس إعلانا متعسفا فجائيا للخلافة والحكم الإسلامي في تلك المنطقة الجغرافية أو هذه.. إنما المحك الحقيقي هو ما ستضيفه الحركة الإسلامية لهذه المسيرة الحضارية وتلك التجارب، وما ستستلهمه لصياغة تصور عصري يواكب المتغيرات ويسد النواقص، وهذا السلوك والمسار ينسجم مع طبيعة الإسلام الإصلاحية التكميلية.. فقد بعث رسولنا ﷺ - لا ليهدم ما حوله وما خلفه ويبدأ من جديد - إنما ليتمم مكارم الأخلاق ويسد النقص ويقوم الخلل.

تساهم الحركة الإسلامية في الحكم بصورة متوازنة ومنطقية، وبمواصلة المراجعة والنقد الذاتي وتطوير الأداء السياسي والدعوي، وباستمرار طرح الأسئلة النقدية في نقاشات عامة وخاصة، والإجابة بموضوعية وإنصاف عن الأسئلة حول حجم

المُعطل من الشريعة في بلاد الإسلام وحجم الموجود منها والقائم، وماهية المشروع الإسلامي ومكان الحركة الإسلامية منه، وحجم مساهمة المؤسسات الدينية الرسمية في هذا المشروع، ومدى قابلية المجتمعات لتصور الإسلاميين لتطبيق الشريعة.. ثم حول قدرة الإسلاميين على استيعاب التنوعات داخل المجتمعات الإسلامية وعدم الاستغراق في صورة تاريخية معينة، والقدرة على الاستفادة من القوانين والقيم الوضعية المحلية والعالمية التي تطابق قيم الإسلام وتنسجم مع روح الشريعة، وتسهم في تحقيق مقاصدها العليا من حفظ للعقائد والأنفس والأموال والأعراض، ثم توفر الرؤية حول مفهوم الشريعة ومعنى تطبيقها ومن يطبقها ومراعاة التنوع واحترام الحريات، وكيفية إسهام الإسلاميين في تطبيقها مجتمعيًّا، أي بالإسهام في التربية وإيقاظ الوعي والضمائر ومحاربة الجريمة ومناهضة الفقر والجهل والمرض.. إلخ، وليس بمجرد التعلق بأمل وصول الحركة الإسلامية لكراسي الحكم وسيطرتها عليه سيطرة تامة، وانتظار هذا الأمر بعيد المنال دون عمل.

وهل يرتبط المشروع الإسلامي والحكم بالشريعة فقط بوصول الإسلاميين إلى السلطة والسيطرة عليها بصورة كلية.. فإذا لم يصلوا فلا شريعة ولا تحرك إيجابيا ولا بناء على ما هو موجود، ولا تفاعل مجتمعيا عاما بالحياة الثقافية والفنية والإبداعية والإعلامية والاجتماعية؟

وماذا أضافت تجارب الإسلاميين السابقة في الحكم لهذا التصور؟

التواضع على رؤية متقاربة ونتائج منطقية بعد نقاش هذه المحاور باستفاضة يمثل منطلقًا جيدًا للفهم، وصولًا لصياغة نظرية إسلامية واضحة ومأمونة ومستمرة ومتنامية بتدرج، وعندها لن تكون هناك حاجة للتساؤل عن طبيعة وماهية مشروع الإسلاميين.

فالمسألة ستكون محسومة بشكل كبير لصالح الرؤية الأكثر انسجامًا مع الواقع وإفادة للدين والشريعة والأمة، بحيث سيمثل مشروعهم ساعتها مشروع الأمة بأسرها، وليس كما يتصورون مشروع الحركة الإسلامية وحدها.

الوعي بالواقع وبالعصر والمتغيرات مسألة حيوية، فهناك إضافات حضارية لأمم أخرى ذات تأثير واسع على مستوى نظم الحكم والفقه الدستوري وقيم الشورى والتداول والحريات والتقدم العلمي والتكنولوجي

الانتصار لمن يضيف إلى ما تم إنجازه وسد الثغرات والخلل، والتقدم بما هو غائب بالفعل عن المشهد العالمي والتجارب الإنسانية.. والثغرة الكبرى اليوم هي انحدار القيم الأخلاقية وغياب الروح وخواء الضمائر، وشيوع الخسة والوضاعة والطمع وبطش القوة، وهذه الثغرات لدى المسلمين الكثير ليسدوها به فيكتمل البناء.

نجح الغرب للأسف منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١م في سحب قطاع كبير من الإسلاميين للاشتراك معه في بطش القوة وحمل آثام سفك دم البشر، والتسبب في آلام وأحزان إنسانية ومآسٍ لا حصر لها.

والأمر في متناول حضارتنا الإسلامية، خاصة وأن قيمنا لا تضيق بالتقدم العلمي ولا تناهض الإبداع والابتكار.. فضلًا عن أن علاج المثالب الحضارية الراهنة متوفر لدينا بتربية الضمائر وتغذية الأرواح وربط الإنسان بخالقه، وفق فلسفة تعمل على تحويل الرقي المادي إلى رقي خلقي وتطوير الواقع ليمسي واثقًا بالروح.. لكن لم يقدم الإسلاميون ترجمة عملية لذلك على الأرض برؤية تربط الشرع بالواقع والحياة، وبمحيط من يعيش معنا من بشر على سطح الأرض.

تحرُّك الإسلاميين كان يجب أن يكون دعمًا وإضافة وبناءً وتكميلًا، سواء على مستوى مجتمعاتنا أو على المستوى الحضاري والكوني وعلى مستوى التجارب التاريخية والإنسانية، فلا يظهروا كنسخة شكلية مظهرية من الماضي - دون الجوهر والقيمة - ولا ظهيرًا لخصوم الحضارة بعدم الإتيان بالجديد الغائب والوقوع في فخاخ العنف، ولا عبئًا على المجتمعات باحتكار المشاريع الحضارية الكبيرة التي لا تنجح في الغالب إلا بالمجتمع كله، وبجميع مؤسساته وتياراته وطوائفه وأبنائه ليس فقط غير المنتمين للحركة الإسلامية، بل أيضًا من غير المسلمين.

المشروع الإسلامي أو الحكم بالشريعة هو في النهاية والبداية مشروع أمة بأسرها تختاره وتصوغه وترضى به وتطبقه وتتقدم به للعالم.. وليس مشروع هذا التنظيم أو تلك الجماعة في هذه الدولة أو تلك.

وأنا على يقين أن السبب الأساسي في عدم نجاح أي حركة إسلامية حديثًا في مشروعها بالحكم بالشريعة، هو أنها تعتبره مشروعًا خاصًّا بها وحدها، وليس مشروع الأمة والمجتمع والوطن الذي تعيش فيه.

الجهاد للاستخلاف والعمران.. أم للخراب؟

الجهاد في سبيل الله مرتبط باستخلاف الله للإنسان في الأرض وليس بشيء آخر إلا في حدود ما أمر به الشرع من رد الاعتداء وحماية العرض والأرض.. بمعنى أنه مرتبط في الأصل بعمران الأرض والإسهام في بنيانها وتنميتها وتحرير إنسانها.. يقول الله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾، والجهاد في الله من أجل الغايات والمقاصد التي خلق الله الإنسان من أجلها.. والغاية الأساسية من استخلاف الإنسان وإسكانه الأرض هو عمرانها والإسهام في بنيانها وتنميتها يقول الله تعالى ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾.

ولما كان القهر والعبودية أكبر عائق أمام تحرير الإنسان ونهضة البنيان والعمران، كان جهاد المسلمين الأوائل لإزالة العبودية والقهر عن الإنسان، فلا يفرض عليه دين، وتفتح أمامه الحرية كاملة في اختيار ما يشاء في ظل تعايش وسلام يتيح للبشر المناخ الملائم للنهضة ببلدانهم وتنميتها.

وكل ما يصب في الاتجاه المناهض لهذا الفهم فهو مناهض للإسلام ورؤيته الشاملة للجهاد التي لا تقتصر على حمل السلاح والقتال كما يتصور البعض.. إنما الجهاد هو نضال متكامل متواصل ضد شرور النفس وأهوائها.. ونضال مستمر في مواجهة التخلف والأمية والفقر والمرض.. ونضال مستمر لإيقاظ الوعي ونشر الخير وبذل المعروف.. ولذلك يتيح الإسلام بدائل كثيرة للحروب من أجل حقن الدماء وإشاعة السلام بين الشعوب، إذا تم إقرار هذه الحقوق وترسخت العدالة والحرية، منها الهدنة والصلح والموادعة، كما ورد تفصيلها في كتب الفقه والحديث.

والجهاد إذا تحققت شروطه وتوجب على المسلمين القيام به ردًّا لاعتداء ومقاومة الغـزاة والمحتلين، له ضوابط حاكمة كأي فريضة أخرى من فرائض الإسـلام.. فكما لا يجـوز للحائـض أن تصلي وللحـاج ألا يحج في غير أشـهر الحـج.. إلخ.. كذلك الجهـاد له شـروطه وموانعه.. فالذي يقوم به ويقرره ويدعو إليه هو الحاكم والسـلطة التي اختارها الشـعب اختيارا حرًّا، والذي يملك القـدرات والإمكانيات المادية التي تؤهله بحق للقيام بهذه المسئولية.

كما يمتلك الرؤية الشاملة بمن حوله من مستشارين ووزراء ومؤسسات متخصصة التـي تتيح الإلمام بكافة ما يتعلـق بالحرب من قدرات واحتياجات اقتصادية وتموينية ولوجستية ومالية، ويمتلك الرؤى والبدائل حول مآلات ونتائج قراره، وكيفية التعامل مع كافة الاحتمالات من فشـل وخسـائر، أو كيفية توظيف نصره العسـكري سياسـيًّا، لجني ثمرة المعارك التي خاضها بجيشه وشعبه.

أمـا جهاد الطلب فقد سـقطت اليوم حاجته لانتشـار الحرية فـي معظم بلاد العالم اليوم، ووصل الإسـلام ودعوته إلى آخر رجل وامرأة في العالم بسـبب توفر وسـائل الاتصـال الحديثة، وتحول العالـم لقرية صغيرة، ولم يعد هناك حاكم ولا دولة تحول بيـن أفرادهـا وبين اعتناق ما تريد مـن أفكار وديانات ـ ما عدا بعـض البلدان التي بها توتـرات واحتقانـات طائفية ودينية ـ بل في أوربا ينتشـر الإسـلام كالنار في الهشـيم بدون سلاح ولا حرب ولا تدخل هذه الجماعة أو تلك.

وجهـاد الدفـاع عـن الأرض والعرض والانتهـاكات التـي يتعرض لها البشـر في أماكـن مختلفـة من العالـم يحتاج إلى تكتـلات وتحالفات أممية تحت مظلة شـرعية دوليـة لاختلاف واقع المسـلمين اليوم عمـا قبل ؛ فليس حالنا اليـوم كحال الأمة أيام المعتصـم بقوته ونفوذه السياسـي والعسـكري المهـول الذي أتاح له تجهيز جيوشـه الجرارة والسير بها لغزو الروم انتصارًا لامرأة انتهكت حرمتها.

فالواقـع اليـوم مختلف تمامًا وضعف البلاد الإسـلامية وتدهور واقعها السياسـي وتخلفها عن امتلاك القوة يسـتوجب القيام بالمتاح في حدود قدرات المسلمين اليوم لنصـرة المظلومين والمسـتضعفين في كل مكان بالعالـم، بحيث لا يؤدي التحرك في

هذا الاتجاه إلى مفاسد أكبر وخسران مواقع إسلامية أو إضعاف بلاد إسلامية وتركها مكشـوفة للغزو، وإتاحة الفرص للمتربصين وأعداء الأمة للانقضاض عليها والسطو على أراضيها وثرواتها.

وللجهاد ضوابط محددة وأخلاقيات، فسـلاح الإسلام له أخلاق كما قال الرافعي ودخـول النـاس في ديـن الله أفواجًا لـم يتم بالسـيف وبمجرد الحـرب والقتال، إنما بالأخلاق التي أبداها ومارسـها المسـلمون والقادة على الأرض من رحمة وتسـامح وتواضع وعفو عند المقدرة.

وفـي الجهـاد هنـاك حرمة قتل المـرأة والطفـل والتمثيل بالجثث، وقتل الأسـرى أو إيذائهـم، وحرمة الغـدر والغيلة والخيانة، وقتـل المدنيين وإتلاف الـزروع وإيذاء الرهبان والقساوسة والعباد.

اللـه -عز وجـل- يقول في محكم التنزيـل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾.

وهنـاك مـن الجماعـات والتنظيمـات وعلـى رأسـها داعش مـن تقفز قفـزات في الهواء، وتتخطى البينات الواضحات والكتاب المحكم والميزان والعدل والمسـاواة والشـورى والقسـط.. وصولًا للحديد والقوة والذبح والبطش دون مقدمات لترسـم صـورة غير واقعية وغيـر حقيقية وغير صحيحة للشـريعة الإسـلامية، ولنظام الحكم في الدولة الإسـلامية، الذي هو عدل وشـورى وحرية وعدالة، وحيـاة كريمة وكرامة إنسـانية ومسـاواة، وهدايـة وقسـط وميـزان وإعاشـة وتعايـش، وسـلام وتكافل وبر وإحسـان للمخالف فـي العقيـدة والفكر، قبل أن يكون قوة وبطشـا وحـدودا وجلدا ورجما وقانونا عقابيا.. فضلًا عن استحالة أن تكون تهجيرا وطردا وذبحا.

مـا تقوم بـه داعش وغيرهـا مـن التنظيمـات التكفيريـة لا ينتمي لتعاليم الإسـلام ولا يمت لمفهوم الجهاد في الإسـلام بصلة.. إنما تشـويه متعمد لهذه القيمة العظيمة التي شـرعها الله وسـيلة لتحرير الإنسـان، وليس كبته وقهره وذبحه وإذلاله ووسـيلة لـدرء ودفـع اعتـداء المعتدين، وليـس الجهاد فـي حد ذاتـه غاية لتحصيل مكاسـب ومغانـم، ولـم يعرف الإسـلام الحرب المسـتمرة المتواصلة.. فالجهاد مجرد وسـيلة لإقرار السلام وترسيخ التعايش للقيام بمهام استخلاف الإنسان في الأرض بمشاركة

أبناء الديانات والعقائد الأخرى وبالتعاون معهم.. كما يقول المولى -جل وعلا-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

أين إذا نماذج القادة المسلمين الفاتحين الأوائل؟.. وكيف تأسست أركان الأمة على نبل محمد ﷺ في فتح مكة، وعطاء صلاح الدين في الشام وسمو أخلاق محمد الفاتح في تركيا الذي يلقبه المؤرخون الأوربيون بالسيد العظيم لعظمة أخلاقه مع المخالفين في العقيدة.. وبكى نساء وأطفال باكستان والهند في وداع محمد بن القاسم الثقفي، الذي كان يؤلف كتبًا لتعليم جنوده وعماله معاملة أهل البلاد من المخالفين في العقيدة برحمة وتسامح ورسموا صوره على جدران البيوت.. كأنه جرافيتي مبكر يمثل الثورة التي أحدثها الإسلام في أخلاق الحرب والفتوح.. وكيف انتشر الإسلام في إندونيسيا بالإبداع في الدعوة والانسياب المتدرج في القلوب.

يمحي اليوم مشهد الفاتحين النبلاء وتتوارى قيم الدين الذي يحرر الشعوب من الإكراه، ويمنحهم الحرية ويقيم نظامه على الشورى وركائزه على الرحمة والعفو، ليتصدر المشهد تكفيريون مسلحون بشعر طويل زعموا فجأة أنهم أقاموا دولة خلافة..

الأسطورة الكبرى المؤسسة لأكذوبة داعش، أنها في حالة حرب مع «كفار» الأرض في كل مكان لإقامة دولة الإسلام، الخالية من الملحدين والعلمانيين واليهود والنصارى - بزعمهم - ولذلك يلاحقون المخالفين في العقيدة بالطرد والقتل.

والله -عز وجل- نهى عن إيذاء ومعاداة المخالفين في العقيدة ما داموا لا يؤذون المسلمين ولا يقاتلونهم ولا يناصبونهم العداء، حيث قال جل شأنه: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

فهل يستحق مسيحيو الموصل الحرب والتهجير والقتل بدعوى إقامة دولة الخلافة؟!

وهل يستحق المسيحيون المصريون القتل على الأراضي الليبية على أيدي ميليشيات تكفيرية لمجرد كونهم مسيحيين؟

إن الذين جازت محاربتهم فقط هم الذين يحاربون المسلمين ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾.. وهنا تقع داعش تحت طائلة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾.

الحروب في تاريخ الإسلام لم تقع بسبب اختلاف الأديان، والمسلمون ليسوا في حالة عداء وخصومة مع البشر لكونهم مختلفين عنهم في العقيدة.. إنما تقع الحروب والعداوات لأسباب أخرى غير اختلاف الدين على رأسها الصراعات السياسية والأطماع الاقتصادية.

ومعاداة المسيحيين في العالم ومطاردتهم في كل مكان بدعوى احتلال قوات «مسيحية» لأفغانستان إساءة للإسلام.. فتعاليم الشرع الحنيف تقرر ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾.

الإسلام مختلف تمامًا عما يروج له ويطبقه التكفيريون في داعش وغيرها.. فهو دين السلام بين المسلمين وبين المسلمين وغيرهم.. وهو رحمة للعالمين وليس للمسلمين فقط، وهو لا يعطي الأمن والسلام وحفظ النفس والممتلكات والأعراض وحرية العقيدة للمسلمين فقط.. بل لجميع الناس مسلمًا أو غير مسلم.

والجهاد في سبيل الله تم توظيفه جيدًا من قبل الشعوب المسلمة التي تعرضت للغزو والاحتلال الأجنبي لاسترداد أراضيها وثرواتها وطرد المحتلين ونيل الاستقلال.. لأن واجبهم الديني يحتم عليهم أن يخرجوا المحتلين من أراضيهم ويدافعوا عن أعراضهم وأرواحهم وممتلكاتهم وأوطانهم ومقدساتهم.

فإذا ما انتهت مشكلة الاستعمار الأجنبي في منتصف القرن الماضي تقريبًا.. فإن مفهوم الجهاد ينبغي أن يتجه نحو المعنى الشامل الأوسع غير القتال، ذلك المفهوم المرتبط باستخلاف الإنسان في الأرض الذي يتضمن النضال من أجل استئصال الجهل والفقر والمرض والأمية ومواصلة بنيان الأرض وتعميرها.

نزرع الدماء والثأرات.. أم المصالحة والتغافر؟

روى أبـو حاتـم الـرازي عن عبـد الملك بـن عُمير، قـال: دخلتُ القصـر بالكوفة (سـنة ٦١هـ) فإذا رأس الحسين بن عليّ على ترسٍ بين يدي عبيد الله بن زياد، وعبيد الله على السرير، ثم دخلتُ القصر بعد ذلك بحين (سنة ٦٧هـ) فرأيتُ رأس عبيد الله بن زياد على ترس بين يدي المختار الثقفي، والمختار على السرير، ثم دخلتُ القصر بعد ذلك بحين (سـنة ٦٧هـ أيضًا) فرأيـتُ رأس المختار على ترسٍ بين يدي مصعب بن الزبير، ومصعب على السرير، ثم دخلتُ القصر بعد ذلك بحين (سنة ٧١هـ) فرأيتُ رأس مصعـب بن الزبير علـى ترسٍ بين يدي عبد الملك بن مروان، وعبد الملك على السـرير. فرأى عبد الملك مني اضطرابًا، فسألني، فرويت له القصة كلها.. وهذا رأس مصعـب بيـن يديك، فوقاكَ الله يـا أمير المؤمنين. قال: فوثب عبـد الملك بن مروان، وأمر بهدم الدار على ما فيه ومن فيه»!

فالـدم لا يولـد إلا الـدم.. والعنف لا يولـد إلا عنفًـا.. والقتل لا يولـد إلا القتل.. والسـيف والقنبلة والمتفجرات لا تحصد وردًا وزهـورًا وثمارًا، ولكنها تزرع الموت والخراب وتحصد الأرواح والحياة.

لقد أشار القرآن إلى المتوالية الهندسية للدماء بقوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

وأشـار إليها رسـول الله ﷺ في حديثه الرائع: «ما من قتيل يقتل على ظهر الأرض إلا كان على ابن آدم الأول كفل منه» أي نصيب منه «لأنه أول من سن القتل.. أي أول

مـن بـدأ هذه المتوالية الهندسـية.. فنقطة دم واحدة تؤدي إلـى ٢ إلى ٤ إلى ٨ إلى ١٦ إلى ٣٢ حتى الملايين.. إنها المتوالية البغيضة التي لا نهاية لها.

وفي مقابل هذه المتوالية البغيضة هناك متوالية رحيمة حكيمة عطوفة رفيقة اسمها متوالية الإحياء التي عبر عنها القرآن: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.. لأن من أحيا نفسًا واحدة ماديًّا ومعنويًّا فكأنما أحيا الناس جميعًا.. والأنبياء هم أعظم أهل الأحياء ومنهم النبي محمد وكذلك سيدنا عيسى عليهما السلام، الذي جمع الله له الإحياء المادي بإحياء الموتى مع الإحياء المعنوي بهداية الخلائق.. وتعليم الناس العدل والرحمة والرفق.

فالرفـق لا يولـد إلا رفقًـا وحبًّـا وألفة ومـودة.. ألا تـرى أن أعظم مـدح قرآني في النبـي ﷺ هو قوله سـبحانه وتعالـى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

فالنبـي ﷺ كسـب الأصدقـاء وحـول الخصـوم والأعـداء إلـى حلفـاء بالرفـق والعفـو برفعـه شــعار ودثــار ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

لقد كسـب النبي ﷺ خالد بن الوليد الذي هزم المسلمين في أُحد بكلمات بسيطة حيـن قال لشـقيقه: «وهـل يخفي الإسـلام على خالد وعقلـة عقله».. فقـال خالد بن الوليد في دهشة وإعجاب: «أو قد قال عني ذلك».. فأسلم من ساعته.

لقـد حول النبي ﷺ أكبر خصومـه وأقواهم وأعتاهم إلى حوارييـن وأنصار.. فلم يقل لخالد بن الوليد يا قاتل الصحابة ويا قاهر المسلمين.. ولو قالها له ما أسلم أبدًا.

إن أزمـة أكثـر العرب والمسـلمين الآن وفـي كل العصور هو أنهـم لا يعرفون لغة الصلـح والمصالحـة والتغافـر والتسـامح.. هي أمة تكـره الصلح الذي قـال عنه ربنا «والصلـح خيـر».. هي أمة تتـوارث قصص الثـأرات الداميـة والغضبـات المدمرة..

ولا تتوارث قصص العفو والصفح.. إنها تتفنن في توريث الكراهية جيلًا وراء جيل.. في حين أن الغرب تناسوا الكراهية والدماء التي كانت بينهم في الحربين العالميتين حيث قتل فيهما قرابة عشرين مليونًا.

والآن ذهبت كل كراهية وأحقاد الماضي وتجمعوا في اتحاد أوربي وحلف الأطلنطي وعملة موحدة وقطار مشترك.. وذلك كله رغم أن العرب أولى بذلك فهم أهل قبلة ودين ولغة واحدة.

لقد أطلق الرسول ﷺ صيحته العظيمة في الدنيا كلها: «لئن تأتوني بالناس وقد ملأ الإيمان قلوبهم أفضل من أن تأتوني بهم قتلى وأساوى».. ولعل جماعة أنصار بيت المقدس أو داعش أو الميليشيات الشيعية وأنصار الشريعة يقرءون هذا النداء ويفهمونه.

هل بُعِثَ المسلمون لقتال العالم بأسره؟

أعلن الناطق باسم تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام أبو محمد العدناني يوم ٢٩ يونيو ٢٠١٤ أول أيام شهر رمضان عن طريق تسجيل صوتي عنوانه «هذا وعد الله» عن قيام دولة الخلافة وتنصيب أبو بكر البغدادي إبراهيم عواد البدري خليفة للمسلمين.

ومنذ ذلك التاريخ وداعش في قتال متواصل وصراعات لا تنتهي على جميع الجبهات، وليس القتال فقط مع الأمريكان إنما مع كل من لا يعترف بدولة الخلافة ويعلن براءته مما سواها ويهاجر إليها، حيث وصفها الخليفة الجديد أنها هي دار الإسلام وما سواها ديار كفر.. حيث قال أبو بكر البغدادي خلال خطبة ألقاها في اليوم التالي لتنصيبه : «يا أيها المسلمون في كل مكان من استطاع الهجرة إلى الدولة الإسلامية فليهاجر.. فإن الهجرة إلى دار الإسلام واجبة».

وقد كان أبو محمد العدناني واضحًا وحاسمًا في تهديده، فجميع من في ديار الكفر غير المبايعين للخليفة الجديد وداعمين لشرعيته، كفارٌ مهدورو الدم، ولا كرامة على حد وصفه عندما قال :

«وننبّه المسلمين أنه بإعلان الخلافة صار واجبًا على جميع المسلمين مبايعة ونصرة الخليفة إبراهيم حفظه الله وتبطل شرعيّة جميع الإمارات والجماعات والولايات والتنظيمات التي يتمدد إليها سلطانه ويصلها جنده».

ثم قال: «ومن أراد شق الصف فافلقوا رأسه بالرصاص وأخرجوا ما فيه كائنا من كان ولا كرامة».

والشواهد والتصريحات والخطب والفيديوهات والأحداث جميعها تدل على أن داعش تعلن الحرب على الجميع وعلى العالم بأسره جملة واحدة.. على الغرب وأمريكا وإيران والشيعة وتنظيمات القاعدة غير المبايعة للخليفة البغدادي وعلى المسيحيين وغير المسلمين في المناطق التي تقع تحت سيطرتها وعلى العلمانيين والشيوعيين وحكام العرب والمسلمين غير المعترفين بشرعية داعش وزعيمها.

فهل بمقدور تنظيم مكون من خمسة عشر ألف مقاتل مواجهة العالم بأسره والقتال على هذه الجبهات جميعها في وقت واحد؟

وهل هذا النهج والسلوك يقره الإسلام ويرضاه؟

داعش تريد أن يبقى أفرادها في حالة قتال مستمر لا ينتهي ولا يتوقف، ويضعون أهدافًا متنوعة ويفتحون جبهات مختلفة باستمرار، لتظل جذوة القتال متقدة لا تنطفئ أبدًا.

فهل قاعدة ديننا الكبرى التي أقامها لنا نبينا ﷺ هي الجهاد الدائم المستمر والقتال الذي لا يتوقف والحروب التي لا تنتهي؟

وأين قواعد الإسلام الكبرى، وأين شرائعه، وأين فرائضه، وأين قيمه ومفاهيمه وآدابه ونظمه وسياساته، وأين غاياته الكبرى ووسائله المتنوعة لتحقيق تلك الغايات؟

الجهاد وسيلة وليس غاية مطلوبة في ذاته.. فأين الوسائل الأخرى التي لجأ إليها الرسول ﷺ واستخدمها صحابته الكرام -رضوان الله عليهم- في التعامل مع الواقع؟

عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- يقول: «**ينقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية**».

والجاهلية التي هدمها الإسلام وأنقذ البشرية منها ليست فقط عبادة الأوثان والإشراك بالله -جل وعلا-.. لكنها منظومة متكاملة من المفاهيم والأخلاق والسلوكيات التي تناقض وتقابل الإسلام، وما يستوجبه من خضوع وطاعة واستجابة لأوامر المولى -جل وعلا- وما يتبعه من التزام بأخلاق الإسلام ومفاهيمه الجديدة، التي جاءت كلها لصالح العلم والمعرفة والثقافة والحلم والعفو والسلام والخير، وتحقيق مصالح البشر الدنيوية والأخروية، في مقابل نزق وجهل وجهالة وسفالة وهمجية وحمية وعصبية الجاهلية.

الجاهليـة تعني في أقـوى وأهم ما تعنيه الحمية والعصبيـة والطيش والنزق، الذي يدفع إلى القتال والثأر الذي لا يتوقف ولا ينتهي.

فالقتـال الدائم المسـتمر الذي لا يتوقف ولا ينتهي من طبيعـة الجاهلية وليس من طبيعة الإسلام.

أما الجهاد في الإسـلام فمجرد وسـيلة لدفع الاعتداء، والغاية هي حماية الكرامة الإنسانية وصيانة الحريات والحرمات أن تكبت وتنتهك وأن يتحقق السلام.

قبائـل العـرب جميعًا كانت طعام السـيوف التي نادرًا ما اسـتراحت في أغمادها.. وها هو دريد بن الصمة يصف لنا ذلك الواقع الجاهلي بقوله:

وأنا للخم السـيف غيـر نكيرة ... ونلحمه حينـا وليس بذي نكر
يغـار علينا واتريـن فيشـتفـي ... بنـا إن صبنـا أو تغير على وتر
قسـمنا بذاك الدهر شـطر بيننا ... فما ينقضي إلا ونحن على شطر

فالحرب والقتال في الواقع الجاهلي لا يتوقف ولا ينتهي ولا يهدأ.

وها هو عمرو ابن كلثوم يتفاخر في معلقته قائلًا:

متى ننقـل إلـى قـوم رحانـا ... يكونـوا فـي اللقاء لهـا طحينا
يكـون ثقالهـا شـرقـي نجـد ... ولهوتهـا قضاعـة أجمعينـا
نطاعن مـا تراضى النـاس عنا ... ونضرب بالسـيوف إذا غشـينا
ورثنـا المجد قـد علمت معد ... نطاعـن دونـه حتـى يبينـا
نجـز رءوسـهم فـي غيـر وتر ... فمـا يـدرون مـاذا يتقونـا

فتأمـل جيدًا هنا لأن سـلوك جز الرءوس الإجرامي البشـع وفصلها عن الأجسـاد الـذي يميز أعضاء داعـش اليوم يرتبط بالجاهلية وينتمي إليها ؛ حيث يقول شـاعرهم الجاهلي قبل الإسلام «نجز رءوسهم في غير وتر».

فجـز الـرءوس وذبح البشـر ونحرهـم مـن الجاهليـة، وينتمي لعصبيتها الفاحشـة وحميتها البغيضة، وليس من الإسلام في شيء.

وكان العربي الجاهلي قبل الإسلام مغرمًا بامتطاء الجياد وامتشاق السيوف، مولعًا بالحـرب وخوض المعارك، فـإن وجد عدوًّا قاتله، وإن لـم يجد اختلق عدوًّا ليظل في

حـرب دائمة متواصلة لا تنتهي. وهذا هو السـلوك والمنهـج الذي تتبعه داعش اليوم، حتى وإن كان عدوًّا من أهله وذويه، كما يقول قائلهم:

وأحيانًـا علـى بكـر أخينـا ... إذا لـم نجـد إلا أخانـا

ومعظـم إنتـاج هـذه الحقبـة الأدبـي، كان تأريخـا لما حـدث في حـروب العرب وأيامهـم، من ذكريـات دامية مؤلمة ورثاء وفخر وهجـاء، ووصف لأحداث المعارك وتحريض وإثارة للضغائن والكراهية.

والشاعر الكبير زهير ابن أبي سلمى الذي يصف ذلك الواقع الجاهلي بقوله:

ومن لم يزد عن حوضه بسـلاحه ... يهدم ومـن لا يظلم النـاس يظلم

يعود بحكمته متأملا في آثار الحروب وويلاتها قائلا:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم

متـى تبعثوهـا تبعثوهـا ذميمة ... وتضـر إذ ضريتموهـا فتضـرم

فتعرككم عـرك الرحى بثفالها ... وتلقح كشـافا ثم تحمل فتتئم

فتنتج لكم غلمان أشـأم كلهم ... كأحمـر عاد ثم ترضـع فتفطم

فتغلـل لكم ما لا تغـل لأهلها ... قرى بالعـراق من قفيز ودرهم

فالحـروب لا يحتاج أهل الجاهلية لتذكيرهـم بويلاتها ومراراتها.. فقد ذاقوا تلك المرارات وجربوا تلك الويلات.

والحروب تلد الحروب فيتوارث الأجيال الثارات والكراهية والأحقاد والدماء.

وتلد الحروب دائما الموتور الناقم الذي يتسبب في الهلاك والشؤم لقومه كأحمر عاد الذي عقر الناقة فأهلك قومه ودمرهم.

والحـروب المتواصلة مناهضة للعمران والبنيان والرفاهية وسـعادة البشـر.. فهي تقترن دائما بالقلة والشـدة والجوع والفقر ونقص الموارد والإمدادات، ومتلازمة مع الدمار والخراب والأحزان والمآسـي.. خاصة مع اسـتمرارها لسنوات طويلة، وهذا كله لا يتفق ومنهج الإسلام وفلسفته وغاياته.

الإسـلام اختلـف عن الجاهلية ورشـد سـلوك أبنائه فـي اتجاهات أخـرى ووجه الروح القتالية التي كانت سائدة في الجاهلية إلى الجهاد في سبيل الله، وسبيل الله هو

إسـعاد البشرية وليس التسبب في تعاستها، وسبيل الله هو نشر التكافل والتعاون بدلًا من التناحر والتصارع الجاهلي، وسـبيل الله هو السـعي والنضال لكي تنال الشـعوب والأمم حريتها ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾، وليس قهر البشر وكبتهم وإكراههم على اعتناق دين بعينه.

بالفعل كان الإرث الجاهلي ثقيلًا واختلف الصحابة في مستوى التحرر منه، حتى أن النبـي ﷺ كثيرًا ما عاتب صحابته وعـاب عليهم في كثير من المواقف تعلقهم بهذا الإرث وصعوبـة تخلصهـم منه، كما في قوله: «مـا بال دعوى الجاهليـة»و «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم» و«إنك امرؤ فيك جاهلية».

فـي صلح الحديبيـة.. والفاروق عمر بن الخطـاب عليم بأحـوال الجاهلية إلا أنه -رضـي الله عنه- في بداية الأمر لم يسـتوعب كيف يصف الله -تبارك وتعالى- هذا الصلح الذي راجع فيه النبي ﷺ مراجعته الشهيرة بالفتح.

وهـذا أمر لم يعهـده عمر ولا الصحابة الكرام -رضوان اللـه عليهم أجمعين- في شأن الحروب وتاريخ المواجهات العسكرية قبل الإسلام.

فسأل النبي ﷺ : يا رسول الله أو فتح هو؟

فأجابه النبي الكريم الحكيم : أي والذي نفسي بيده إنه لفتح.

وهـذا بالرغم من أن ظاهر الصلح بشـروطه التي فسـرت بالمجحفـة، لم يكن في صالح المسلمين وقتها.

وهذا الفتح المبين يصفه الزهري بقوله:

«فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم من فتح الحديبية.. إنما كان القتال حيث التقى الناس، ولما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس كلم بعضهم بعضًا والتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا في تلك المدة إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر».

قال ابن هشام :

«ويدل عليه أنه ﷺ خرج في الحديبية في ألف وأربعمائة.. ثم خرج بعد سنتين إلى فتح مكة في عشرة آلاف».

ففي هذا الجو السلمي ازدهرت الدعوة وانتشر الإسلام.. وهذا ما طلبه النبي ﷺ من قريش أن توفره له ولمن معه في قوله: «**وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم.. فإن شاءوا ماددناهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس**».

وتلك إحدى أهم المظاهر التي اختلف فيها الإسلام عن الجاهلية، لذلك بذل النبي الكريم ﷺ جهودًا مضاعفة لنزع هذه الرغبات القتالية والعصبية والثأرية، لترشيد مواقف أصحابه وتعويدهم على نهج الإسلام وتعاليمه التي تجنح للسلم، ولا تركب الحرب إلا عندما يشتد الخطب ويتعرض الإسلام ودولته لما يهدد بقاءه ووجوده، أو في حال تم الاعتداء الخارجي على بلاد المسلمين.

والنبي الكريم في غزوة خيبر والمسلمون مقدمون على حرب وقتال يعطي الراية لعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه-.. ويقول له وهو يسلمها له: «**فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم**».

لقد ندم عمر -رضي الله عنه- بعد مراجعته النبي ﷺ وأبا بكر في صلح الحديبية، وقد علم أن الإسلام جاء بأمر مختلف تماما عن أمر الجاهلية.

فإذا كانت فتوح الجاهلية ثارات وحروب وقتال لا ينتهي ولا يتوقف، ودماء وكراهية وضغائن واستعلاء بغير الحق وفخر وخيلاء.. ففتوح الإسلام صلح وخير يعم الجميع، وسلام وأمن يتيح للحق والخير والهداية، الفرص في الانتشار وضرب الباطل في مقتل، عن طريق الحوار والعرض الموضوعي والإبداعي الشيق، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

لقد راجع -عمر رضي الله عنه- النبي وندم بعد أن تأمل وقارن بين رؤية الإسلام وفلسفته، وبين تاريخ الجاهلية الذي عايشه وعرفه عن قرب حق المعرفة.

لذلك قال -رضي الله عنه- «ينقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية».

وأول وأهم عرى الإسلام أنه دين السلام والإخاء والتعايش والمحبة والرحمة للبشرية كلها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

فإلى أي نهج ينتمي قتال داعش وفلسفتها في الحروب والنزاعات والصراعات المستمرة التي لا تتوقف ولا تهدأ؟.. إلى الجاهلية أم الإسلام؟!!

الفصل الرابع

الأبعاد الشرعية والدستورية

الشعوب والمجتمعات.. لا القادة والتنظيمات

الدساتير موجودة منذ القدم ورغم ذلك تحدث مخالفات جسيمة للشريعة من الجميع حكامًا ومحكومين.. لكن في عهد الرسول ﷺ لم يكن هناك دساتير ولا تقنين لمواد الشريعة ولا مزايدات.. ومع ذلك كان الذي يرتكب جرمًا يأتي بوازع من نفسه إلى الرسول ﷺ ليطهره بالعقاب الدنيوي دون ملاحقات من شرطة أو غيره.. والفارق أنه كانت هناك تربية حقيقية للنفس البشرية، وتطبيق حقيقي وعملي للشريعة في حياة الناس ودنياهم.. وكان هناك بناء للضمير الإنساني وتعبئة النفوس بالخير والهدى.

وهذا هو سبيل الحفاظ على الهوية وإقامة الشرع.. وليس بالمزايدات والتوظيف السياسي لقضية الشريعة.

الخلافة ليست شيخًا بعمامة سوداء، نازلًا بالباراشوت من السماء يرجم ويجلد ويذبح أو يدعي الزعامة، وبأنه قائد المسلمين في الأرض هكذا بدون مقدمات.

إنما هي اختيار مجتمع حر اقتنع بهذا النهج وصولًا لتعزيز حريته ورفاهيته وللمستوى الأعلى من الكفالة والتعايش والعدالة والرقابة على الحاكم ومساءلته.

واختيار الخليفة أو الحاكم أو الرئيس - وفق المصطلحات العصرية - كما في التصور الإسلامي، تم بالتشاور وبمشاركة واسعة من عامة المسلمين من النساء والرجال باستخدام الآليات والأدوات المتوفرة في هذا العصر أو ذاك لتسهيل إتمام هذه العملية بحكم الاتساع الجغرافي وتزايد التعداد السكاني.. ولذلك قال سيدنا عمر - رضي الله عنه- كما في صحيح البخاري: «**فمن بايع رجلًا على غير مشورة من المسلمين فلا يتابَع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا**».

والخلافة الحقيقية الصحيحة المقبولة تجمع من يواليها ويبايعها ويعترف بسلطانها، ويخضع لها كافة المسلمين في جميع أنحاء الأرض، وليس فقط بعض أعضاء التنظيمات الجهادية والتكفيرية المتناثرين هنا وهناك. وبحساب سريع لا توجد مقارنة بين أعداد المسلمين في العالم الذين لا يعترفون بداعش وبخلافة البغدادي ولا يريدون الخضوع لسلطانها، وبين عدد المعترفين بها المؤيدين لها، حيث تكاد تكون النسبة معدومة، وأعداد الموالين لداعش مثل نقطة في محيط المسلمين الواسع.

كما أن اختيار الحاكم أو الخليفة كان في حرية تامة وليس تحت نصال السيوف وقهر القوة والإكراه كما تفعل داعش حيال من لم يبايع لأميرها.. فهذه السلطة أقرب إلى النظم الاستبدادية الشمولية منها إلى نظام الخلافة، الذي لا ينبني على إكراه أو قهر باستخدام القوة والتهديد والتخويف.

أي تطبيق لقوانين الشريعة أو ترويج لفلان خليفة للمسلمين أو آخر أنه قائد المسلمين في الأرض، بشكل لا يراعي سياق الزمان والمكان والأحوال والظروف، أو غير منسجم مع مستوى استعداد الناس ونضج المجتمع، سيجعل قوانين الشريعة منافية لقيم الشريعة ومبادئها الكلية .

علمًا بأن القوانين خادمة للقيم وليس العكس، وسيجعل المسلمين أضحوكة العالم وسيتوالد الخلفاء ومن يدعون بأنهم الأحق بالخلافة من ذلك الذي ادعى أنه الخليفة، وسيتضاعفون وسيتنازعون على لا شيء ملموس على الأرض.

البداية الصحيحة في تنشئة شعب الخلافة الراشدة وإيجاد المجتمع الراشد أولًا، وليس في العثور على الخليفة أو القائد والمفاخرة به والمنافسة في سوق الخلفاء، فجماعة يقولون هذا خليفتنا وآخرون يرفضون ويبايعون غيره كأنهم يتنافسون في عالم افتراضي، حيث لا وجود لشيء ملموس على الأرض ولا كيانات، إنما مجرد أشخاص ومجموعة من المبهورين بهم يتنافسون على لا شيء.

القادة لا يخلقون الشعوب ولا يصنعون نظم الحكم الراشدة، إنما الشعوب والمجتمعات هي من تصنع ذلك، ونموذج دولة النبوة خير نموذج. وما كان الفاروق

عمر بن الخطاب إلا ثمرة شعب راشد ومجتمع شبه مثالي، غرس الرسول بذرته وتعهده بالرعاية لأكثر من عشرين عامًا متتالية، لذلك قال ﷺ: «كما تكونوا يول عليكم».

وتجسيد ذلك أن عمر -رضي الله عنه- حمد الله على نعمة ذلك المجتمع الذي دعمه وساعده لإنجاح تلك التجربة التاريخية المدهشة في الحكم.. بينما جاء من خلفاء بني أمية من استباح أن يقول للناس من فوق المنبر: «من قال لي اتق الله بعد يومي هذا قطعت عنقه».

وعندما عاتب بعض الناس أولئك الخلفاء على أنهم لا يسيرون على نهج الخلفاء الراشدين، أرجعوا السبب إلى المجتمع وإلى الناس الذين ليسوا بدرجة إيمان من كانوا في عهد الخلفاء الراشدين.

هناك مزاعم بإقامة ومبايعة خليفة هنا أو هناك.. فهل أقيمت فور هذا الزعم الخلافة أو الحكم الرشيد الذي تحلم به الشعوب؟

هذا ضرب من ضروب المحال.. فأمر عظيم مثل هذا لابد من أن يسبقه تمهيد تدريجي طويل المدى للوصول إلى المجتمع الراشد، الذي يصلح لخوض هذه التجربة العظيمة ولحمايتها والقيام بأمرها خير قيام.

في الهند في أوائل القرن التاسع عشر قام مصلحان من علماء المسلمين بتجربة كالتي يروج لها من يروج لخلافة أبي بكر البغدادي، واستطاعا تكوين جيش للجهاد، ونجحا في الاستيلاء على بقعة صغيرة نائية من الأرض في شمال غربي الهند، فأقاما فيها نظامًا إسلاميا للحكم كنموذج عهد الراشدين، وفشلا بالطبع؛ لأنهما لم يبذلا جهدًا في تهيئة المجتمع وتربية النفوس والعقول، وظنا أن الخلافة تقوم بمجرد نصب الخليفة والاستيلاء على قطعة أرض.

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي تعليقًا على تجربة هذين العالمين: «إن البلاد التي اتخذها العالمان ميدانًا لجهودهما ومقرًّا لحكومتهما الإسلامية، لم يهيئاها لهذا الانقلاب العظيم؛ كان لابد أن يحدث في أهالي هذه البلاد أنفسهم انقلاب فكري وخلقي، ليستعدوا لفهم نظام الحكم الإسلامي ويتجهزوا لنصرته وحمايته».

ويفرق المودودي بين المسلم الجغرافي – وهو المسلم بالاسم فحسب- والمسلم الحقيقي.. فيقول: «وأثبتت التجربة فيما بعد أن إنزال جميع المسلمين

الجغرافيين منزلة المسلمين الحقيقيين ووضع الثقة فيهم كوضعها في المسلمين الحقيقيين كان زلة وقع فيها هذان البطلان».

ويقول مقررًا هذه القاعدة وهذا الحكم العام: «إن كل انقلاب سياسي لا ترسخ أصوله في العقلية الاجتماعية والأخلاق والمدنية يكون كالنقش على الماء».

يبدو المشهد مضحكًا وشر البلية ما يضحك، فهذا يدعي أنه الخليفة وتتم مبايعته من مجموعة من المقربين منه ومن مؤيديه، بدون خلافة حقيقية على الأرض.. إنما خلاف ونزاعات وانقسامات وكراهية وأحقاد بين المسلمين شعوبًا ودولًا.

المجتمع لا مكره له، ويجب على دعاة الشريعة السعي إلى إقناع المجتمع بأحكام الشريعة، لا إلى إكراهه عليها، وإن كانت بيدهم السلطة السياسية والعسكرية.

وبالنظر إلى حكم الخلافة الراشدة ومثاليته وكيف كانت الحريات مكفولة للأفراد.. فإنما مرد ذلك إلى توفر بيئة خاصة لا يتوفر منها عنصر واحد من العناصر في عصرنا هذا.

فبساطة الحياة اختفت والوازع الديني الإيماني العميق ضعف كثيرًا وغلبت الشهوات على النفوس.

ولاشك أنه إذا ضعف الوازع الديني، فإنه ينبغي ألا يترك الحاكم المسلم حرًّا دون مراقبة ودون قيود اعتمادًا على الجزاء الأخروي.. بل يجب على الأمة أن تضع على سلطانه وسلطاته من القيود ما تراه ضامنًا لعدم إساءة استعمالها.. فالسلطة مفسدة والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة.

ولا يختلف اثنان أن الإجراءات والضمانات التي تكفل وتضمن حماية الحريات والحقوق ضد التعسف والانحراف وهوى الأنفس إنما هي من صميم الدين، وإن اختلفت المسميات واستحدث لها من آليات وتشريعات ومؤسسات مستقلة عن مؤسسة الرئاسة كمؤسسة القضاء - التي كانت تتبع الخليفة مباشرة - ومؤسسة المجلس التشريعي أو النيابي وممثلي الأمة المنتخبين.

وإذا كان الإسلام قد رأى في الجيل الأول أن المثل الأعلى تحقق في تنفيذ الحاكم أوامر الله من تلقاء نفسه وبوازع من دينه دون الفصل بين السلطات والرقابة

على مؤسسة الحكم ـ كما في النظم الحديثة ـ فإنه لا يناقض الإسلام ولا يجافيه أن تقيم الدولة المسلمة نظام الحكم الذي ترتضيه، بما يضمن نفس النتيجة وتحقيق ذات الغاية على نحو مشابه في ظل ظروف متغيرة وواقع مختلف.

العامل الأهم لنجاح الحكم الرشيد والقيادة الراشدة، هو توفر بيئة خاصة ومجتمع راشد؛ لأن القيادة وحدها مهما كانت ورعة تقية مضحية عادلة أمينة وذات كفاءة إدارية وسياسية، لا تستطيع وحدها أن تفعل شيئًا.

التغيير الحقيقي لنظام الحكم والمبادئ التي يقوم عليها، لابد أن يسبقه تمهيد تدريجي طويل وتهيئة للبيئة والنفوس.. فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

ولذلك ينبغي أن تترك مسألة اختيار نظام الحكم في الدولة الإسلامية ليوضع لها الحل، طبقًا لما تمليه ظروف البيئة الاجتماعية والسياسية واتجاه الرأي العام ومقتضيات الصالح العام في كل زمان ومكان، وألا نقيم من نظام معين بشكله ووصفه، عائقًا في سبيل الحل وسط ظروف لم تكن معروفة ولا موجودة من قبل.

على أن يتقيد هذا النظام الجديد المساير للواقع فقط، بأن يقوم نظام الحكم في الدولة على المبادئ العامة الأساسية التي جاء بها الإسلام في ميدان أنظمة الحكم، كمبادئ الشورى والحرية والمساواة والعدالة والتكافل الاجتماعي ومسئولية الحاكم.

بلادنا إسلامية.. وليست جاهلية

المخالف للشريعة في دساتير الدول الإسلامية قليل جدًّا، حيث تتفق كل القوانين الإدارية كقانون المرور وقوانين الأسرة والأحوال الشخصية المتضمنة أحكام الزواج والطلاق والمواريث مع الشريعة الإسلامية.

الذي يختلف فقط مع الشريعة هو الحدود والجنايات أو ما يسمى بقانون العقوبات، وهو رغم مخالفته للشرع إلا أنه يتفق مع الشريعة في تجريم المحرمات القطعية التي جرمها الإسلام وحرمها، كالقتل والسرقة والخمر والمخدرات والزنا والدعارة والقمار.. إلخ، وإن كان لم يلتزم بالعقوبات المقررة شرعًا واستحدث لها عقوبات مطبقة في غالبية دول العالم اليوم.

العاطفة الدينية في بلادنا الإسلامية من المغرب إلى إندونيسيا لا تخطئها العين، وتعظيم الناس في أوطاننا للشعائر والمظاهر الدينية سمة غالبة.

البروتوكولات في الدول الإسلامية تلزم رئيس الدولة بحضور صلاة العيدين وغيرهما من المناسبات الإسلامية، مثل غزو بدر وذكرى الهجرة والمولد النبوي والإسراء والمعراج، وغيرها من المناسبات.

الشريعة ليست قانونا جنائيا ولا عقوبات، إنما هي الدين كله بعقائده وعباداته وأخلاقه وشعائره وآدابه ومعاملاته.. وكذلك بتفاصيله القانونية والفقهية ومواد قوانينه العقابية.

الشريعة هي الدين كله بعقائده وعباداته ومعاملاته وأخلاقه وآدابه وشرائعه وقوانينه، وليست جزءًا من هذه المقومات والعناصر دون البقية، يقول المولى -جل

شـأنه-: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. الإمام الطبري أكد في تفسيره لهذه الآية أن «الشريعة هي الدين».

هنـا ندرك معنى الشـريعة ومعنى الدين بشـموله وبوضـوح وبرؤية أكثـر إيجابية، تغـذي روح العمـل والنضـال والرغبة فـي الاسـتكمال والتكامل والبناء والمشـاركة والإيجابية، لا الصراع والتشـاؤم والانتقاص والهدم والمفاصلة والقطيعة مع الواقع، بدعوى احتكار الإسلام أو احتكار الشريعة.

الذيـن يزعمـون أن بلادنا الإسـلامية إنما هـي بلاد جاهلية لا يطبق فيها شـيء من الإسـلام ولابـد من تغييرهـا إلى بلاد إسـلامية، بالرغم مما نصت عليه دسـاتيرها من اعتبـار الإسـلام وتوحيد الخالـق قيمة ومرجعية عليـا.. وبالرغم مما نـراه من عمران للمسـاجد التي تضج بالمصليـن والصائمين والقائمين القارئيـن للقرآن والحريصين على الحج وزيارة الرسول- وتلك هي الكليات التعبدية - وبما نراه من احترام للكبير وتواضـع العلمـاء وذوي الوجاهة وكرم الضيافة والعفو والتسـامح والمحبة - وتلك هـي الكليـات الأخلاقية - وبما نراه من نظام واحتـرام قوانين المرور واللوائح ونظام الدولة العام، وهي كليات إدارية مستمدة من الشرع. وكذلك القوانين الخاصة بالأسرة المسـتمدة من الشـريعة والموافقـة لها، والحرص علـى إقامة العدل والمسـاواة أمام القانـون - فـي معظم الأحوال - وقيم التنوع والتعدديـة والحرية.. فهذا جميعه التزام بكليات ومبادئ الشـريعة العليا.. فهل تعي داعش ذلك ومن يزعم أن الشـريعة معطلة تمامًا في بلادنا، أو أن الحكام ومعاونيهم فيها طواغيت بسـبب بعض المخالفات في قانـون العقوبات واختـلاف العقوبة عما هو معمول به في الشـرع، رغم الاتفاق على تجريم هذه الأفعال والجرائم وملاحقة مرتكبيها وإنزال العقوبة عليهم؟

قانـون العقوبات ليس من الكليات والقيم الدسـتورية، إنمـا هو فرع من هذه القيم العليا.. والشريعة أكبر وأشمل من هذا التصور بكثير جدًّا.

العبادة والصوم والصلاة تربي الضمائر التي عندما رباها الرسول ﷺ، كان الرجل المذنـب يأتي بنفسـه ليطهره النبي بالعقوبـة الدنيوية ويخضع للقانـون.. بينما ما قيمة القوانيـن بلا ضمائر حية تسـتجيب، إنما تحرص على التهرب والتحايل على الشـرع وعلى أعتى القوانين وأقساها وأكثرها تشددًا.

تربيــة الضمائر وتزكية النفوس بالعبـادات والقيم والأخلاق والمعاملات الحياتية الراقية جزء أصيل من الشريعة.. فعليه الاعتماد بشكل كبير لاحترام الشريعة وصاحبها -جل في علاه- والسعي لتطبيقها بشكل فعلي.

فالشـريعة روح تسـري فـي القلوب، وليسـت شـعارات عنترية ووجـوه متهجمة وأخرى ملثمة والشعر الطويل وبعض مشاهد تقطيع الأيدي وجلد الظهور هناك وهنا.

الشريعة ليست مجرد أحكام أو مجموعة قوانين، إنما نضال لا سقف له، ولا حدود للقيام بمسـئولية إعزاز الأمة والدين والأوطان واسـتعادة ميراث آدم في السـيادة على الأرض بالعلم والعمل والإيجابية والكفاح.

الشـريعة قضيــة أمة لا قضية حاكم، وجميعنا مسـئولون عن تطبيقها على مسـتوى الفـرد والأسـرة والشـركة والمصنـع والمؤسسـة والمصلحـة الحكوميـة، فلا فسـاد ولا إفساد ولا تجاوز ولا تطاول ولا خيانة ولا ظلم ولا عنصرية ولا كبر ولا اضطهاد ولا طغيان، وكل راع وكل رب أسرة أو مدير شركة أو رئيس جامعة أو مؤسسة، يمكنه أن يكون طاغية ظالمًا فاسدًا، وبوسعه أن يكون عادلًا أمينًا رحيمًا.

جميع المسلمين كل في موقعه ومكانه مطالب بتطبيق مبادئ الشريعة وقيمها على نفسه وفي محيطه، وعلى من يتولى أمرهم من أبناء أو عمال أو طلبة أو موظفين.

وبهذا يطبق المجتمع الشريعة التي تصبح ساعتها هي حياة الشعب وشغله الشاغل، ولا قيمة للإبقاء على فساد المجتمعات من الداخل، والاكتفاء بتحميل مسئولية تعطيل بعض الشـريعة على الحكام وحدهم، ومن ثم مباشـرة الخروج عليهم وقتالهم.. إنما السـلوك القويـم هو التقويم وسـد العجز والإسـهام في النهـوض بالمجتمع، ليصبح المجتمـع مماثلًا أو قريبًا من المجتمع الراشـد، من تكافـل ومحاربة للفقر والجريمة والفسـاد ومواجهـة للجهل والمرض والجشـع والاحتكار، ونشـر قيم البـر والمحبة والتعاون والإحسـان والتضحية والإيثار، والإسهام في مشروعات تنموية، ومساعدة الشـباب العاطـل علـى تخطي أزماتهـم وإيجاد فـرص عمل لهم في القطـاع الخاص والاستثمارات الصغيرة، والإسهام في القضاء على ظاهرة العنوسة.. إلخ.

بذلك يقترب المجتمع من الراشـدية ليفرض النمط الذي يريده في الحكم.. فمن المستحيل أن يحكم نظام فاسد منحرف مجتمعًا راشدًا مستقيمًا.

على مستوى العدالة الاجتماعية وهي من مقاصد الشريعة الكبرى، من السهل تحميل الحاكم المسئولية وتخوينه بسبب التهاون في إقرارها وتحقيقها لكنه ليس المسئول وحده.. فأين مطالبة الأغنياء بالقيام بمسئولياتهم لتحقيق هذا المقصد الأساسي من مقاصد الشرع، والمبدأ الرئيسي من مبادئه وهو العدالة وتحقيق المساواة؟

وما هو حكم رجل الأعمال والمستثمر المسرف الذي ينفق الملايين على نزواته وحفلاته، ولا ينظر لمجتمعه وشباب وطنه والبسطاء والكادحين نظرة شفقة ورحمة، ولا يفكر في إقامة مشروع تكافل وإعانة؟

وأين دور العامة من الناس في الحسبة والمراقبة على هؤلاء وغيرهم، في حدود ما بينته نصوص الشريعة وما حددته من ضوابط؟

وعلى مستوى إقامة العدل وتحقيق المساواة أمام القانون وهو من مقاصد الشريعة العليا، من السهل تحميل الحاكم والقضاة المسئولية كاملة في شيوع الظلم والمحسوبية والتفرقة.. لكنهم في واقع الأمر هم ليسوا المسئولين وحدهم.. فأين مسئولية من شهد بالزور وبغى على غيره وافترى عليه كذبًا، ومن أعان على الكذب والتدليس ولفق القضايا؟

وأين مسئولية الدعاة والعلماء والمفكرين والمثقفين في تربية الوجدان وتنقية الضمائر وتهذيب النفوس لتقل الجرائم وينحسر القبح؟

تطبيق الشريعة يتحقق من داخل المجتمع أولًا.. ومن ثم يفرض هذا المجتمع المسلم اختياره على الحكام الذين لا يقدرون ساعتئذ الانحراف عن اختيار الشعب أو العصف بإرادته.

لذلك كان المجتمع هو المُخاطَب الأصيل بتطبيق الشريعة وتحقيقها على الأرض والسلطة ما هي إلا مجرد نائب عنه، كما قال إمام الحرمين الجويني في كتابه غياث الأمم: «**فالمسلمون هم المخاطبون، والإمام في التزام أحكام الإسلام كواحد من الأنام، ولكنه مُسْتناب في تنفيذ الأحكام**».

حكم داعش يفسد الضمائر والدولة!

في عهد النبي ﷺ تأصلت السياسة الشرعية وسار الصحابة على النهج النبوي في الفعل السياسي اتباعا في الثوابت واجتهادًا في المتغيرات، فلم يختلفوا إلا في متغيرات اجتهادية يعتبر الخلاف فيها طبيعيًّا وموافقًا للسنن الاجتماعية.

وقد بقي المجتمع الإسلامي متماسكًا لا يعرف اعتراضًا على الفعل السياسي الشرعي لسلطة الخلافة، إلى أن أوقدت الفتنة في أواخر عهد عثمان -رضي الله عنه- فكان قتله بسببها - كما في رسائل بن حزم - «أول خرم دخل الإسلام».. وتفاقمت أهواله بما جرى بين عليّ ومعاوية -رضي الله عنهما- من اختلاف اجتهادي، كان من تداعياته الحضارية على مسار السياسة الشرعية تحول الخلافة إلى ملك وانتقاص مبدأ الشورى ونشوء الفرق.

لا يمكن إغفال الإنجازات الحضارية العظيمة التي تحققت في هذا الواقع، لكن خرجت السلطة السياسية الكافلة للأمور العامة عن المنهج العلمي السليم في أعمال الرأي والاجتهاد العقلي المقاصدي الشرعي، فزالا معًا لتلازمهما بحيث كانت النتيجة ضعف السلطة السياسية وإغلاق باب الاجتهاد، وترتب على ذلك سقوط حضاري بليغ تمثل نموذجه العام في سقوط بغداد على يد التتار ثم سقوط الأندلس ثم سقوط رمز الخلافة لاحقًا في تركيا.

كانت العناية بالسياسة الشرعية من لدن الفرق الإسلامية عاملًا مهمًّا في مسار تاريخ نظرية السياسة الشرعية.. وذلك لتعدد النظريات التي أنتجتها هذه الفرق وتعاملت بها مع الواقع السياسي، وفي خضم هذه النظريات لدى الشيعة وأهل السنة

وتدافعها الداخلي والخارجي.. إنما الاشتغال بالسياسة الشرعية وتوجه نحو ترسيخ سلطة التغلب وهيمنة معرفة السيف على معرفة القلم، فصارت تمارس لإدامة سلطة التغلب والخوف من الفتنة.

الوقوف على إنجازات العقل الإسلامي في هذا المجال يوضح مدى مستوى النقلة النوعية المنهجية التي أحدثها الإسلام، فأخرج بها الإنسان من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرشد العقلي.. وما كان الانحراف في السياسة الشرعية إلى التقليد والدفاع عن الظلم والاستبداد، وإقصاء الشورى والانتقاص من الحريات العامة إلا انحرافا عن مقتضيات الشرع ومقاصده.

كل سياسة أثمرت عدلًا وحرية ومصالح للأوطان ومنافع للناس، فهي راجعة لاجتهاد متزن وتنزيل راق لمقتضيات الشرع ومقاصده.

توقف تطوير السياسة الشرعية في مراحل من عمر الأمة، فتراجع تأثيرها الحضاري وغابت عن مواكب الريادة، وأحداث الأعوام الثلاثة الماضية التي فضحت وكشفت بشكل غير مسبوق عمق الحركة الإسلامية وطريقة تفكير قادتها وأسلوب تعاطيها مع الواقع وتنوعاته ومستجداته المتسارعة، تدل على أن أغلى وأهم ما يحتاجه الإسلاميون، هو تطوير السياسة الشرعية بفصل بين الفقه السياسي العام وبين الفقه السياسي المتغير، الذي يرجع إلى قواعد سياسة التشريع فيما لا نص فيه.

وأظهرت حاجة الحركة الإسلامية الملحة لرموز سياسية مبدعة خلاقة تتميز بالكفاءة والخبرة والتمرس، لتصمد بهم وتنافس في واقع شديد البأس والضراوة والتحدي وفي محيط من سياسيين شديدي الدهاء والاحترافية.

هناك ضرورة للفصل بين الأخلاق والقانون.. فالأخلاق هي حقوق الله التي لا سلطة لأحد عليها غير الضمير الفردي - وهو جانب الحريات العامة -، أما القوانين فتتعلق بحقوق الناس التي تحتاج لسلطة الدولة لتطبيقها والفصل فيها.

فليست كل معصية جريمة جنائية يعاقب صاحبها وتستلزم تدخل الدولة، إنما تتحول المعصية إلى جريمة جنائية فقط إذا تعدت وانتهكت حقوق الآخرين.

هنـاك ضـرورة للفصـل بيـن مفهومـي الدولـة العقائديـة كمـا كانـت فـي زمـن الإمبراطوريـات القائمة على الدين والعقيدة، وبيـن دولة العقد الاجتماعي بمفهومها الحديـث، مـع السـعي بكل الطـرق الممكنـة لتحقيق الوحـدة والتعـاون الاقتصادى والسياسـي والإسـتراتيجي بين الـدول العربية والإسـلامية على مسـتوى العالم، بما يحقـق مصالح المسـلمين ويقوي الأمـة الإسـلامية والعربية في مواجهـة التحديات والمخاطر التي تهددهما.

الإسـلاميون بحاجة لثورة عقلية واجتهادية كبيرة لتطوير السياسة الشرعية والنظم الدسـتورية، ولا نتـاج فقه سياسـي مواكب للعصـر وقريب، أكثر من مبادئ الإسـلام ولصيق بمقاصد الشرع ومصالح الناس وقادر على مواكبة الواقع وتحدياته.

سياسـة شـرعية ونظـم حكم تمـس روح الإسـلام وجوهـر حكمـه، بالفصل بين الأحكام الأخلاقية والأحكام القانونية من الشريعة.

داعش ومثيلاتها من التنظيمات تتدخل في خصوصية حياة الناس وتدخل فيما بين الناس باسـم الدين والشـريعة، في أمور تركها الإسلام لضمير الفرد وهى متعلقة فقط بعلاقة العبد بربه، مثل العقائد والأفكار والانتماءات والعبادات والسـلوك الشخصي الذي يخص الفرد ولا يتعدى لضرر الآخرين.

بينما تهمل هذه التنظيمات والجماعات ما أوجبه الإسلام عليها، من رعاية مصالح الرعية وتحقيق التكافل والتعايش والسـلام والعدالة الاجتماعية والشـورى والعدل، أي أنها تسـيء للشريعة الغراء، وتقدمها بطريقة شائهة غير متجانسة ولا منطقية وعلى غير حقيقتها.

وفـي نفـس الوقـت تربـي الرعيـة على غيـر هدى الإسـلام وفلسـفته فـي الحكم والأخلاق، لأن من شأن هذا السلوك في الحكم أن ينشئ أجيالًا منافقة محتالة تعيش علـى الكـذب والخداع وفسـاد النية والطوية وكراهية السـلطة، مما يـؤدي لاحقًا إلى فسـاد الدولة، كما ذكر ابن خلدون ـ رحمه الله ـ يقول: «الملك إذا كان قاهرًا باطشًـا بالعقوبة، كاشـفًا عـن عورات الناس، معددًا ذنوبهم، شـملهم الخوف والذل، ولاذوا

منه بالكذب والخديعة وفسدت بصائرهم، وربما خذلوه في الحروب فتفسد الحماية بفساد النيات فتفسد الدولة».

في الدول الإسلامية القائمة نحتاج لبعض الجهد لكي نصل للمستوى الذي نرضاه لارتباطنا بشرع ربنا، ذلك الارتباط الذي ينسجم مع الواقع ولا يجافيه، والذي يضيف للأمة ويقويها ولا يمزقها ولا يزرع في ربوعها الفتن، وذلك بالسعي للتكامل مع واقعنا وحاضرنا كدول وأمم وجماعات، وهناك دور مهم لفقهاء وعلماء الأمة أن يرعوا التكامل بين الشريعة والفقه والتطور الدستوري القائم، وأن يدعموا التكامل بين رجل الدعوة ورجل الدولة، ويعملوا على إنهاء العداء والخصومة التاريخية بينهما.

كل قانون نضيفه للشريعة يتوافق معها ويصب في غاياتها ومقاصدها ويحقق مصلحة شرعية ولا يناقض نصًّا صريحًا من نصوصها، فهو من الشريعة وهو قانون شرعي.

لذلك ينبغي بذل الجهد الفكري والدستوري للنظر في القوانين المستحدثة التي تنسجم مع الروح الإسلامية، وتخدم مقاصد الشرع وإكسابها الخلفية الإسلامية، مما لا يناقض الشرع الحنيف ويحقق مصالح العباد في حفظ النفس والعقائد والأموال والأعراض، ونموذج ذلك ما قام به القيادي الإسلامي الدكتور مصطفى السباعي -رحمه الله- في كتابه «اشتراكية الإسلام» عندما رحب بالعدالة الاجتماعية وتوزيع الثروة والإصلاح الزراعي الذي قام به الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، واحتوى المصطلحات المستحدثة إسلاميا ما دامت تتفق مع روح الشرع ومقاصده.

الإسلام يناضل من أجل حرية البشرية

الديـن والإكـراه لا يجتمعـان، ومتى ثبـت الإكراه بطـل الدين.. فالإكـراه لا ينتج دينًـا، بل نفاقًـا وخداعًـا، والإسـلام يناضـل من أجـل البشـرية كلها وليس من أجل المسلمين فقط.

الإكـراه باطل في التصرفـات والمعاملات والحقوق الماليـة والدنيوية والحياتية، فـلا يصح معه زواج ولا طلاق ولا بيـع ولا بيعة، ومن باب أولى فلا يصح معه عقيدة ولا دين.

احتج قادة داعش في خطبهم ببعض الآيات لإظهار الإسـلام بصورة مختلفة على غير الحقيقة، ومنهـا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾، وقوله عز وجل: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾.

لكن الأمر بجهاد الكفار والمنافقين قد يكون بوسائل أخرى غير الحرب والقتال، والمنافقون لا يُقاتلون أو يُقتلون لمجرد نفاقهم، إنما لأسباب أخرى.

والقتـال في الإسـلام يكون لأسـباب عديـدة، كالدفاع عـن النفـس ورد العدوان واسـتعادة الحقـوق المغصوبـة، والسـياق التاريخي لكل حـالات القتال الـواردة في السيرة النبوية يكشف ذلك بجلاء.

جميع الآيات التي يحتج بها زعيم داعش أبو بكر البغدادي وقادة التنظيم في خطبهم وفيديوهاتهـم لتسـويغ مـا يقومون به من تصرفـات تحت عنوان الجهـاد، مخصوصة

بحالات معينة وبزمن معين وبظروف خاصة وبقوم مُعينين من غير المسلمين، تنطبق عليهم شروط القتال والمواجهة المسلحة.

الإسلام اعتمد سياسة ردعية وعقابية صارمة ضد العرب المشركين وضد اليهود في المدينة، وتطلب ذلك سن القتال وخوضه في معارك عديدة، لكن ذلك لم يقع إلا بعد صبر طويل على أعمالهم العدوانية والتآمرية التي أصابت المسلمين في أرواحهم وأموالهم وسائر حقوقهم.. ومع ذلك ففي خضم هذه المواجهات وفي ظل انتصارات المسلمين فيها نزل قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾.

يحتج قادة داعش أيضًا بقوله تعالى: ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾.. وهذه الآية مرتبطة بما قبلها، حيث يقول الله -عز وجل- في الآية التي تسبقها مباشرة: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾.

كذلك استدلوا بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.. وحديث «أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله إلا الله..».

فيجب حمل مثل هذه الآيات والأحاديث على معنى خاص، وهو حالة الحرب والقتال لا في حالة السلام.. فرسول الله لم يقتل ولم يقاتل كل كافر وكل منافق وكل من لم ينطق بلا إله إلا الله.

يؤكد العلامة «مصطفى يعقوب» أحد أشهر علماء إندونيسيا أن الغزوات في الإسلام لم تقع بسبب اختلاف الأديان بل بأسباب أخرى، وغزوة بدر كان سببها رفض المشركين رد أموال المسلمين وأراضيهم وبساتينهم وبهائمهم التي تركوها بمكة بعد الهجرة، وعندما عاد المشركون من الشام أرسلوا في طلب المدد فأرسل لهم مشركوا مكة ألف مقاتل، فكانت المواجهة في بدر جنوب المدينة وكذلك فيما يخص اليهود، فلم تكن غزوة بني قريظة - على سبيل المثال - إلا بسبب نقضهم

العهد مع المسلمين، وكانت غزوة تبوك في العام التاسع الهجري بسبب جمع الروم لنصارى العرب بغرض مهاجمة المسلمين.

وفي المقابل فقد أمر الإسلام رئيس الدولة أن يقاتل البغاة من المسلمين الذين خرجوا عن طاعته كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾.

والإسلام هنا لم يأمر بقتالهم لكونهم مسلمين إنما بوصفهم بغاة، وكذلك الحال في قتال مانعي الزكاة. (انتهى الاقتباس من كتاب «الإسلام بين الحرب والسلام» للعلامة «مصطفى يعقوب»).

السلطة في دولة الإسلام ليست للإكراه على اعتناق الدين، إنما أرسل الإسلام الجيوش لرفع الإكراه على اعتناق دين بعينه أو على المنع منه، بما يمثل فتنة للناس عن الاختيار والإرادة الحرة.

بمعنى أن الإسلام يضحي بأبنائه ويرسل الجيوش وينفق على هذه المواجهات من مال الدولة ومن أموال المسلمين ويعرض أرواحهم للخطر لضمان حرية الناس جميعًا، ولتبقى حرية الفكر والاعتقاد مكفولة بدون وصاية ولا قهر ولا خوف من سلطة أو حاكم سواء مسلم أو غير مسلم.. فالإسلام يناضل ويضحي من أجل حماية حرية البشر في اختيار ما يشاءون وليس لفرض معتقد بعينه عليهم كما تفعل داعش.

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!

ابـن القيم -رحمه الله- يقـول في كتابه «إعلام الموقعين»: «الله سـبحانه وتعالى أرسـل رسـله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسـط، وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، فـإذا ظهـرت أمارات العدل وأسـفر صبحه بأي طريق فثم شـرع الله ودينه ورضـاه وأمره».. ومـن مقتضيات العدل الإلهي ولوازمه تلك المسـتويات الممنوحة للبشر من الحرية.

وإذا تتبعنا مسـارات هذه القضية الكبيرة على مسـتوى ارتباطها بالدين والشريعة.. عجبنا من سطحية وسذاجة تعامل العقل الإسلامي الحماسي معها بما قد يطيح بأحد أهم معالم الشريعة وأركانها الخالدة.

قد ينشـأ الخلط من عدم الفصل بين حقوق اللـه المرتبطة بضمير الفرد والمتعلقة بالجوانـب التعبديـة والاعتقاديـة وحقوق العبـاد التي تحتاج لسـلطات دولة وقوانين لضبطهـا وإنفاذهـا، وهو جانب محـدود جدًّا تـم التوسـع فيه والمبالغة على حسـاب مسـاحات الحرية الواسـعة الخارجـة عن سـلطان القوانين والملاحقـات والمراقبة؛ فليـس من الشـريعة في شـيء إرغـام الناس علـى غلـق متاجرهم في أوقـات الصلاة أو ملاحقة السيدات وإجبارهن على ارتداء الحجاب بقانون وعقوبة.

سـلطة الله علـى عباده وعلى الكون محيطة بجميع مـا كان وما يكون، فلا يقع في الكون شيء إلا بما يشاؤه، ومساحة حرية الإنسان وسط هذا الملكوت المطلق يقول عنها الإمام محمد عبده : «فليعط الإنسان الإرادة وليفعل هو بهذه الإرادة ما يشاء إلى يوم الحساب ؛ فالله سبحانه خلق السماوات والأرض وما فيهما بقدرته وهو قادر على

كل شـيء، وهـذه القدرة التامة تقتضي علمه بكل شـيء، إذ يعلم مـا في الصدور وهو عـلام الغيـوب، فهو يعلم أفعال الإنسـان إذا كانت خيرًا وإن كانت شـرًّا، وإلى جانب ذلك خلق لعباده إرادة حرة وحكم فيها عقولهم.. فالإنسان إذن بعقله يفكر وبمداركه يفهم ويعلم.. لهذا كان تبعًا لإرادة المرء وعقله مختارًا فيما يُقدم عليه من الأعمال.

وبالتالي يُسـأل عن أفعاله طالما أنه حر في الاختيار.. فالسارق يسرق بإرادته، كما يزني بميوله وشهواته.. بمعنى أنه ينفذ ما يقدم عليه بإرادته لا بإرادة القضاء المكتوب، فالإنسـان مسئول عن أفعاله عملًا بقوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾، وعلى ذلك يتقرر أن الشريعة تسائل المرء عن أفعاله مسئولية كاملة».

هـذه الحكايـة عن عبد اللـه بن عمر -رضي اللـه- عنه توضح القضية وتبسـط لنا المسـألة أن بعض الناس قالوا له : يا أبا عبد الرحمن إن قومًا يزنون ويشـربون الخمر ويسـرقون ويقتلـون النفـس ويقولـون : كان فـي علم الله فلـم نجد بدًّا منـه، فغضب عبد الله بن عمر ثم قال : سبحان الله العظيم قد كان ذلك في علمه أنهم يفعلونها ولم يحملهم علم الله على فعلها.

حدثني أبي عمر بن الخطاب أنه سـمعَ رسـول الله ﷺ يقول : «**مثل علم الله فيكم كمثـل السـماء التـي أظلتكم والأرض التـي أقلتكم ؛ فكما لا تسـتطيعون الخروج من علـم الله، وكما لا تحملكم السـماء والأرض على الذنـوب، كذلك لا يحملكم علم الله عليها**».

فلا يعقل أن يدفع الله -سبحانه وتعالى- هذا الشخص أو ذاك إلى السرقة وشرب الخمـر والزنـا.. فهـذا يتناقض مع نهيه سـبحانه عن هذه الأفعـال ويتناقض مع العدل الإلهي المطلق.

ليأتي إجبار الناس بسـلطة القانون - كما في بعض التطبيقات الشـوهاء للشريعة- علـى الصوم أو الصـلاة أو الحجاب متناقضًا مـع هذه القيمة المطلقـة، وليفرغ قضية الخلق والمسـئولية من مضمونها، ويجعل الإنسان كائنًا بلا إرادة ولا اختيار، ويجعل العبادات والمعتقد - وهي أعلى وأعظم قيم الدين - عُرضة لملوثات النفاق والخداع

وتملق البشر ومراءاتهم، وصولًا بكنوز الجوهر والمضمون الغالية إلى المتاجرة في أسواق المظاهر الخاوية.

جاء على لسان ربعي ابن عامر في خبر دخوله على رستم ابتعاث المسلمين لإخراج الناس من جور الأديان إلى عدل الإسلام.. وهذا المستوى التحرري اقتضى قول عمر الفاروق «ألا إنما أبعث عمالي ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم ولا أبعثهم ليضربوا ظهوركم ولا ليأخذوا أموالكم».

وأيضًا: «ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم»، واستلزم هذا المنهج القصاص من ابن عمرو بن العاص بشهود المؤمنين بخاتمة قول عمر الخالدة «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا».

الخاتمة

لم تأتِ داعش بجديد على صعيد خدمة الإسلام وتطوير أداء الجهاديين وخطابهم وتحسين أوضاع بلاد المسلمين سياسيًّا وإستراتيجيًّا، ولم تستفد من تجربة القاعدة، إنما تجاوزتها بممارسة أخطاء وخطايا سياسية وشرعية فادحة، هي أشد إضرارا بالإسلام وبالمسلمين وقضاياهم مما فعلته القاعدة قبلها.

داعش تقع في فخ مخطط المخابرات المركزية الأمريكية التقسيمي لإضعاف الأمة الإسلامية ونسف الوحدة العربية، وطمس معالم الدولة الوطنية الموحدة القائمة على التعايش والمواطنة والمشتركات الحضارية والثقافية والانتماء الوطني.. ومن ثم إشعال حرائق الفرقة والتقسيم على أسس طائفية ومذهبية وإشاعة روح الكراهية والأحقاد، واستدعاء الثارات المذهبية الضاربة في القدم وروح التربص والتناحر، لتنهار الأمة تمامًا، ويسهل على الأعداء احتواؤها والسيطرة على مقدراتها وثرواتها.

داعش تعيد من جديد نفس السيناريو ؛ باستفزاز الغضب الأمريكي والغربي وإعطاء المبررات لتدخل أجنبي جديد، وضربات في الداخل الإسلامي والعربي أشرس وأعنف.. لتهاجم أمريكا المنطقة من جديد وتهيمن عليها بصورة أشمل وأوسع بمباركات دولية لإحكام السيطرة على العرب والمسلمين.. وإحكام السيطرة على الأمة بالإمعان في إضعافها وتجزئتها وتفكيكها.

داعش ضربت بعرض الحائط مبادئ الشريعة العليا وقيمها الأساسية: من شورى وحرية وعدالة ومساواة واحترام للتنوع والتعددية والحريات الشخصية ومسئولية الحاكم ومراقبة أدائه ومحاسبته إذا أخطأ أو تجاوز أو استبد أو طغى.. وأظهرت مقابل ذلك تمسكها بإقامة الحدود الجنائية، وهي جزئيات وفرعيات في الشريعة تتعلق

بالقوانيـن والعقوبات، ولا ترقى لأهمية القيم والمبادئ العليا للشـريعة التي أهدرتها داعـش وعصفـت بها، لتقدم صـورة قاصرة شـائهة للحكـم الإسـلامي لا يمت لنظام الحكـم في الإسـلام إلا فيما يخص بعـض المظاهر والفرعيات، التـي إذا تـم تفريغها مـن الجوهـر والمقصد والمبدأ والقيمة - وهو ما فعلتـه داعش - صار كارثة ومصيبة وإدانة تاريخية لا تمحى لهذا المنهج الذي تدعي داعش الانتسـاب إليه، إذا لـم يؤدي أهـل الشـأن وأصحاب الواجب دورهم ويقوموا بمسـئولياتهم ويدفعوا عن الإسـلام وشريعته هذه السبة، ويقدموا للعالـم النموذج الحضاري المثالي لشريعة الإسلام.

داعـش اختارت الطريـق الخاطئ الانفعالي الحماسـي الذي لا يترك أثـرًا حقيقيًّا في اتجاه وسـياق نهضة الإسـلام والأوطان، وبردود أفعـال تخدم مخططات الأعداء وتسهل تنفيذها على أرض الواقع.

داعـش لـم تتعلـم مـن التجارب السـابقة، ووضعت الأمة الإسـلامية من جديد في مواجهـات وصراعات أكبر بكثير من إمكانياتها وقدراتها على التحمل، وهي المنهكة الضعيفة واستدعتها لحروب ومعارك هي في غنى عنها، في زمان هي أحوج ما تكون لترميـم جراحهـا ولملمـة شـملها الممـزق المبعثر، وإنهـاض ما تعثر وانكفأ وسـقط من أوطانها.

داعـش تفجـر وتقتل وتذبح وتقـوم ببعض التفجيـرات العشـوائية، وتبث الرعب والفزع في القلوب، وتشـوه صورة الشـريعة وتسـيء لصورة الإسـلام، وتهيئ المناخ بتصرفاتهـا ومواقفهـا الأحادية غير المبنيـة على رؤى إسـتراتيجية، لإضعـاف الأمة وإنهاكها وتمزيقها وتقسيم أراضيها.

داعش أسـهمت بحظ وافر في تشـويه الوجه الحضاري للإسلام، وأساءت بشكل غير مسـبوق لدور الأمة الإسلامية الحضاري، وشوشت بما ترتكبه من حمق وجرائم وهمجية ودموية ووحشية على الصورة النقية التي انبهر بها الغرب والعالـم كله، عندما خرجت الشعوب العربية بسلمية وتحضر تطالب بحقوقها المشروعة.

أحبطـت داعـش والقاعـدة فـي العـراق وسـوريا وليبيـا ومصـر واليمـن الأحلام والتطلعات لمستقبل أفضل، من خلال تحركات شعبية سلمية بيضاء، بكوابيس القتل

والـدم، وبتنظيمـات التفخيخ والتفجير ومشـاهد الذبـح والنحر، وباسـتدعاء أمريكا لإعادة الشعوب قهرًا تحت سيطرتها تمص من دمها وتنهب ثرواتها .

مـا تقـوم به داعـش وغيرها مـن التنظيمـات التكفيريـة لا ينتمي لتعاليم الإسـلام ولا يمت لمفهوم الجهاد في الإسـلام بصلة.. إنما تشـويه متعمد لهذه القيمة العظيمة التي شرعها الله وسيلة لتحرير الإنسان، وليس لكبته وقهره وذبحه وإذلاله.

تسـتل داعش سـكينها لتقطع الأيدي وتجـز الرقاب وتنحر البشـر وتذبح الرهائن والصحفييـن، وتبث الرعب مـن خلال فيديوهاتها على اليوتيوب في نفوس البشـر.. وهي تزعم أنها بذلك تنصر الدين وتعلي راية الإسلام.

وفـي حقيقـة الأمـر فما داعـش إلا أداة وسـكين في يـد أعداء هـذه الأمـة العربية والإسلامية العريقة لذبح الإسلام وإراقة دمه وتمزيق جسد الأمة.

ستذهب داعش وسيبقى الإسلام بعظمته وروعته ونقائه وجلاله ورحمته وشريعته الغالية وأوطانه الموحدة، وسـيزول كل تنظيم بتصوراته القاصرة المنحرفة.. لكن أمة الإسـلام باقية بـإذن الله وحاضرة بشـعوبها وأوطانهـا وحضارتها وتاريخهـا وتراثها الفكري وشـبابها الواعي ومثقفيها ودعاتها وعلمائها وسياسييها ومفكريها ومناضليها ورجالها ونسـائها، يقودون الأمة إلى القيام بدورها الحضاري المنوط بها، ويدافعون عـن ثوابتها والصـورة الحقيقية النقية لشـريعتها، وينهضون بالأمة سياسـيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا وعلميًّا وتقنيًّا وعسـكريًّا، لتقف فـي وجه التحديات وتحمي وجودها وبقاءها وترعى مستقبلها، موحدة قوية عصية على الاختراق والتقسيم والتفكيك.

رغـم أنـف داعش ومن ورائها ومن يحركها ويمولها فأمة الإسـلام باقية بإذن الله.. ولن تستسلم يومًا للذبح.

والله من وراء القصد.

المؤلفان

د/ ناجح إبراهيم

أ/ هشـام النجـار

الأحد ١١ ذو القعدة ١٤٣٥هجريـة

٧ سبتمبر ٢٠١٤م

داعش

قادة داعش يقدمون أنفسهم للعالم كممثلين حصريين عن الإسلام والمسلمين، ويزعمون أن ما يقومون به وينطلقون منه هو الإسلام الصحيح الذي يخدم مصالح الأمة ويحقق عزها. ولكن من تكون داعش، ولماذا تمددت سريعًا؟ وما دورها في إخماد الثورات العربية؟ وما هي الخلافة التي يحتاجها المسلمون اليوم؟ بينما نعرف أن الإسلام يناضل من أجل حرية البشرية، تجعلنا عمليات داعش نتساءل: هل بُعث المسلمون لقتال العالم بأسره؟

هذا الكتاب يتناول تاريخ حركة داعش وأبعادها السياسية والاستراتيجية، وأيضا شرعيتها ودستوريتها، فيطرح الأسئلة التي تشغلنا جميعًا حاليًا ويحاول أن يجد لها إجابات.

- **ناجح إبراهيم عبد الله:** داعية ومفكر إسلامي. من مواليد ديروط في صعيد مصر، كان من أهم الدعاة والمربين في جامعة أسيوط في السبعينيات. نقل الدعوة من جامعة أسيوط إلى معظم محافظات الصعيد مع مجموعة من إخوانه الذين كونوا الجماعة الإسلامية بعد ذلك. قاد مع الشيخ كرم زهدي وقيادات الجماعة الإسلامية مبادرة منع العنف والمراجعات الفقهية للجماعة الإسلامية والتي تخلت بها عن العنف وحلت بها الجناح العسكري ورجعت إلى الوسطية الإسلامية. ألف ٢٥ كتابًا معظمها في الدعوة الإسلامية والفكر الإسلامي.



- **هشام عبد الله محمد النجار:** قيادي إسلامي سابق، من مواليد الدقهلية. باحث إ
سياسي، له مقالات في الصحف الرسمية والمواقع، كما أنه وناقد أدبي وله أربع مجم
وعشرات الدراسات النقدية بالصحف والمجلات والمواقع الثقافية المتخصصة.
المشرف الثقافي بموقع الجماعة الإسلامية - إشراف الدكتور ناجح إبراهيم. وعض
الاتحاد العالمي للإبداع الفكري والأدبي.
قدم استقالته من الجماعة الإسلامية وعضويته من المكتب الإعلامي لحزب البنا
تفعيل مبادرته للمصالحة عام ٢٠١٣م.



دار الشروق
www.shorouk.com